أمين الخولي

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية

بحث قدم وألقيت خلاصته

في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد بمدينة بروكسل

من ١٦ الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥

مطبعة الازهر

١٩٣٩/٢/٣٠٠٠

ألى

العقول القوية ، والقلوب الكبيرة

التى تدرك من التدين أسمى معانيه وأنبل أغراضه

« أقدم هذا البحث »

أمين الخولى



المؤلف بين أعضاء مؤتمر تاريخ الاديان فى رحلته بضواحى بروكسل وتشير اليه علامة (X) .

ويرى فى الصورة :
(١) حضرة صاحب الفضيلة والمعالى الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الاوقاف السابق .
(٢) السيد يحيي دولت آبادى مندوب إيران فى المؤتمر .

الفهرست

صفحة

الأهداء ٣

مقدمة : من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ٥

فاتحة ١٥

الفصل الأول :

الاتصال المادى بين الدينين : —

الفتح الأسلامى فى الغرب — العصابات الأسلامية القوية فى أوربا — الغرب والشرق فى الحروب الصليبية — الأسرى من الجانبين — مثال من الأسرى ذوى الأثر : ليون الافريقى — الغربيون فى الجيوش الأسلامية — المسلمون فى الجيوش الأوربية

الدعاوة السياسية التى تمس النواحى الدينية — مراكز دينية أسلامية فى أوربا — تبادل الوفود لأسباب مختلفة من عسكرية وسياسية —

بقايا المسلمين فى أوربا بعد الاستعمار الأسلامى — أسباب الاتصال الاجتماعى : الرحلات على اختلاف أغراضها .

١٧ - ٣٢

الفصل الثانى

الاتصال المعنوى بين الدينين :

وصف الحياة الغربية ، عقليا ، ودينيا واجتماعيا ، فى عهد النهضة الأسلامية —

صفحة

الاقتباس العلمى لمعارف الشرق — خطوات ذلك الاقتباس — ملوك أوربا وعظماؤها يؤيدون هذه الحركة — اللغة العربية فى أوربا.

الاتصال الفلسفى بين الغرب والأمم الأسلامية — ابن حزم فى الغرب — صلة البيئة الألمانية خاصة بالشرق والأسلام.

٣٣ – ٥٢

الفصل الثالث :

من نتائج الاتصال :

تمهيد ٥٣

الآثار العامة لاتصال الغرب بالشرق : —

الغض من سلطة الكنيسة ٥٤

تحرير العقل ٥٥

المؤثرات الأسلامية فى تجدد الكنيسة ٥٦

الآثار الخاصة للاتصال :—

رفض السلطة الكنسية ٦٠

الاكتفاء بتصحيح العقيدة ؛ ورفض وساطة الكنيسة بين الله والناس ٦٤

الرجوع الى الكتاب المقدس وحده ، ونبذ آراء المجامع ؛ والآباء ؛ والتقاليد ٦٦

الحركة الظاهرية وصلتها بذلك ٦٧

إعطاء كل مسيحى حق تفسير الكتاب ، وصلة ذلك بالأسلام ... ٧١

مسألة سر الشكر ، وإنكار استحالة القربان إلى جسد المسيح ودمه ٧٢

صلة هذا الأنكار بالتفكير الأسلامى ٧٤

أبطال عبادة الصور ورفعها من المعابد وصلة ذلك بالبيئة الاسلامية ٧٦

خاتمة ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (1)

من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

فى سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م دعى الأزهر لحضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل، فى شهر سبتمبر من تلك السنة؛ فلبى الدعوة وأوفد حضرتى صاحبى الفضيلة، الأستاذين مصطفى عبدالرازق، وأمين الخولى؛ وقد اختار الأستاذ الخولى موضوعا لبحثه «حادث الاصلاح البروتستانتى فى المسيحية» فكتب فيه هذه الرسالة، بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الاسلامى والعلوم الاسلامية.

موضوع طريف، وبكر - فيما أظن - ويبدو كأنه غريب. لكن الاستاذ الخولى بما منح من رجاحة العقل، ودقة البحث، وسعة الاطلاع، استطاع أن يزيل هذه الغرابة، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى الموضوع.

وحركة الاصلاح المسيحى حادث من الحوادث البارزة فى تاريخ الأديان؛ وما من حادث فى هذا الوجود، إلا وهو أثر لغيره ومؤثر فى غيره؛ والحوادث العظيمة ترتبط عادة بأسباب كثيرة سابقة؛ وقد يكون السبق بزمن طويل؛ ثم من الأسباب ما يكون واضحا، ومنها ما يكون خفيا حتى لا يدرك إلا بعد العناء، أو بعد سفر من الخاطر طويل.

---

(1) ألف الناس من هذه المقدمات ما هو التقريظ أو ما يشبهه، لكنما اراد الله أن تكون هذه المقدمة مثلا من حرية الفكر، ونزاهة النظر الدينى فى مناقشة مولانا الاستاذ الاكبر، لنتائج هذا [illegible] المؤلف.

وقد شاء الأستاذ الخولى أن يرى صلة حركة الاصلاح البروتستانتى بأصول الاسلام ، وعلوم الاسلام ؛ ونظم بحثه على ثلاثة فصول : —

الأول : فى أثبات الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا .

الثانى : فى اثبات الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا .

الثالث : فى آثار ذلك الاتصال .

***

وقد أثبت الاتصال المادى والمعنوى ، بما أرى أن فيه غناء للمنصف . فالحروب بين الاسلام والمسيحية فى الشرق والغرب ؛ وتبادل الأسرى ؛ والفتح وبسط رواق الحكم والسلطان الاسلامى فى الغرب ؛ وغزو الفرنجة بلاد المسلمين ، واختلاط الجند فى الشرق والغرب ؛ واستعانة المسلمين بغيرهم فى مرافق الدولة وأعمال الحكومة ؛ واستعانة غيرهم بهم فى ذلك ؛ والوفود التى تفد من الجانبين للصلح وتقرير العلاقات ، أو لورود البلاد ، والانتفاع بما فيها من مناخ وموارد ؛ وتبادل التجارات ، كل ذلك لا يدع مجالا للشك فى هذا الاتصال المادى وقوته .

ثم مر ورحقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها غارقا فى الأمية والجهالة ؛ وحركة نقل المعارف الاسلامية وترجمتها ؛ وترجمة القرآن الكريم نفسه ؛ وتعلم اللغة العربية ، واللغة العبرية لأنهما لغتا العلم ، والواسطة لدراسة العلوم الاسلامية وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة ؛ والتأثر بأعلام العلماء الاسلاميين ، كابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد . كل ذلك ثابت ، وقد أتى الأستاذ بالشواهد عليه ، وبالأسانيد التى لا تقبل الجدل ؛ وهو برهان الصلة المعنوية بين الغرب وبين الأسلام ؛ ومن الحق أن يقول الأستاذ بعد استيفاء هذا كله (... من كل هذا يتجلى للقارئ التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ؛ وأنه كان بخاصة فى البيئة الجرمانية — الميدان الأخير للاصلاح — وانجلترا)

ومن الواقع أن حادث ظهور الاسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التى انتشر بها فى الشرق والغرب ؛ وخلافته على دول عريقة فى المدنية والأدب ، قوية السلطان؛ واقتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم ، والاستيلاء على البلاد التى جاءها ، وحصول ذلك على أيدى رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربى دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفكير فى الروح التى وصلت بهؤلاء ألى ذلك المجد الحربى ، والمجد الروحى وألى ذلك السلطان القاهر ؛ وفى الأسباب التى أثارت هذه الروح ؛ وفى معرفة ماجاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم ؛ ومعرفة ماتخلقوا به ؛ وما اتخذوه نظاما لهم فى حياتهم العامة . والخاصة ؛ أضف الى ذلك أن المسلمين لم يكتفوا بالقوة المادية ، وقوة الوحى ، بل سعوا ألى المعرفة يتلمسونها فى كل ناحية من الأرض ، وقام خلفاؤهم على حياطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلسل من البيوت العريقة فى المجد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ما اتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة فى عهدهم واتصف به غيرهم ممن بعدهم. مما حبب ألى الناس أرضهم وبلادهم، وحبب اليهم حكمهم والاستظلال برايتهم . وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون إقامة الشواهد والأدلة ؛ فإن هذا طبيعى يدركه كل من راقب سير الوجود ، وسير العلم فى هذا الكون .

وقد كانت اليابان أمة لا يأبه لها الغرب ولا يعدها فى مصاف الدول المتمدينة، حتى جاء حادث الحرب بينها وبين الروسيا سنة ١٩٠٤ ، وكان لها الغلب فتغيرت موازين الأمور ، وتغير قدرها ؛ ونظر اليها الغرب نظره الى أمة عريقة فى المجد ، وعاملها المعاملة التى يستحقها مجدها الحربى والعلمى .

لكن ربط حركة الأصلاح المسيحى خاصة ، بالدين الاسلامى ، والمعارف الاسلامية : من فلسفة وتصوف وما ألى ذلك يتطلب بلا شبهة إقامة الشواهد ونصب الأدلة ؛ وهذا ما حاوله الأستاذ الخولى فى رسالته

ويجدر بنا أن نبين هنا ألى حكمة قالها الأستاذ فى الرسالة وهى : أننا

« حين نفسر هذا الاتصال وذلك التأثر ، لانزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ؛ بل نقدر ماهنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى الناحيــة العقلية والدينية ، التى قربها لها وقدمها بين يديها ذلك الاتصال بالشرق الاسلامى ؛ فمقصدنا العلمى إنما هو إلقاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين المسيحى والاسلامى ببيان هذا الاتصال وأثره »

فهذه الكلمة الصادرة عن نزاهة فى البحث ، وعن اعتدال فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه ألى البحث من نقد ؛ فالأستاذ لا يدعى أن الاصلاح المسيحى ثمرة مباشرة للمعارف الاسلامية ، تفردت تلك المعارف بايجادها ولولاها لما وجد الأصلاح بل يصرح بأن الأصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة اجتماعيــة ودينية وغيرها ؛ وغاية الأمر أن المعارف الاســلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ منها أمنية المصلحين ، وأنها جذبت الأبصار أليها ووجهت العقول نحوها ، وخلقت مزاجا أعانهم على ما اختاروه .

ومثل هذا حاصل الآن عندنا ، فأن اتصالنا الحديث بالغرب اتصالا ماديا ومعنويا ؛ ونقل آثاره العلمية ألى لغتنا ؛ ومعرفتنا بلسانه ؛ ثم تفوقه الحربى والعلمى ونفوذه المنبسط على الشرق ؛ كل أولئك قــد بعث فى الشرق روحا جــديدة تغاير الروح التى كانت سائدة فى القرن الماضى ، بل غير العادات والتقاليد ، ومناهج التفـكير . ومن المتعلمين من مرق من الدين ، ومنهم من حاول التوفيق بين الدين والعلم الجديد ؛ ومنهم من نبهه البحث الجـديد الى إعادة النظر فى التراث القديم لاختيار ماهو أصلح منه ، ومنهم من اتجه لتحرير القديم مما زيدفيه وابتدع . وليس من الواجب أن يكون المثال المنتزع من مثال آخر مطابقا له من جميع الوجوه أو من أكثرها ؛ بل قد يأخذ المثال بعض خصائص الأصل فى المعنى والصورة ويوجد مثالا آخر يوافق مزاجه ، ويوافق عقيدته الموروثة ، ويوافق البيئة التى نشأ منها وعاش فيها .

وكما أن معارفنا تأثرت حديثا بمعارف الغرب ، فقد تأثرت من قبل بما أفاد المسلمون عن غيرهم من علم وفلسفة . والناظر فى علومنا الاسلامية يلمح هذا التأثر فى كل شىء : يلمحه فى علم أصول الدين ؛ وعلم أصول الفقه ؛ وفى الفقه نفسه ويلمحه فى التفسير ؛ وكتب شراح الحديث ؛ وفى كتب التصوف وغير ذلك .

***

نعود بعد هذا ألى الفصل الثالث من فصول الرسالة ؛ وقد قسم الأستاذ الخولى الآثار الناجمة عن الاتصال المادى والمعنوى قسمين :

(ا) آثار عامة .

(ب) آثار خاصة .

وعد من الآثار العامة : الغض من سلطة الكنيسة ؛ وتحرر العقل البشرى .

واستدل على الأول بخمود الحماس الدينى ، أثر انتهاء الحروب الصليبية ، حتى لم يعد كافيا لتحريك القلوب ؛ وحتى انتهى الأمر بتحديد سلطة الكنيسة .

ومما لاجدال فيه ، أن هذين الأصلين عريقان فى الاسلام ؛ فهو دين لايعترف لأحد كائنا من كان بسلطة دينية على أحد ؛ إلا ما أعطى للامام من حق فى المباحات يوجبها أو يحظرها وفقا للمصلحة العامة ؛ وإلا ما أوجبه على العامة من استفتاء العلماء فيما لاعلم عندهم به ؛

أما العلماء فلهم حق تفسير الكتاب وحق استثمار الأحكام منه ، ومن السنة المطهرة ، وعليهم العمل بما اعتقدوه أو ظنوه حكما لله ؛ لا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره ، وأن يتنازل عما هداه اليه اجتهاده ؛ وكلمة الامام الشافعى فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة « كيف اخذ بقول من لو عاصرته لحججته » .

وقد أثمر العقل ثمراته التى حفلت بها الأرض فى ظلال القرآن ، وتحت راية السنة المطهرة . وخلف العلماء هذا التراث الخالد الذى نعتز به وتعتز به البشرية قاطبة .

وقد يكون الحد من سلطة الكنيسة ، وخمود الحماس الدينى أثر الحروب

الصليبية أثرا من آثار الخيبة والفشل فى هذه الأعمال الطائشة ، التى ذهبت ضحيتها آلاف من الأرواح البريئة التى دفعت الى أتون الحرب ؛ لكن هل يذهب هذا بآثار اتصال الغربيين بالشرق ، وما شهدوا فيه من حياة عملية وعلمية ودينية ، تخالف كل ماعهدوا ، وماصور لهم عن هذا الشرق وأهله ودينه ! !

وقد يقال أن تحرر العقل البشرى أثر من آثار العقل ، نفسه ، فقد خلق حرا طليقا يغضبه أن يقع فى الأسر والحجر ، ولما طال عليه الأمد فى قيوده لم يستطع الصبر ، فحاول تحطيم الأغلال والقيود واستطاع بما ألقته الفلسفة أمامه من الضوء أن يفوز ببغيته ، وأن يعود الى طبيعته طليقا حرا . هذا ممكن وقريب جدا . لكن الذى قرب الفلسفة وقدمها هو الاسلام ؛ فهو بسبيل أن يكون له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب ، بعد استعباده العنيف ، وإخلاده الى الركود .

***

وعد الأستاذ الخولى من الآثار الخاصة فكرا بعينها من أصول الاصلاح البروتستانتى منها :

(ا) رفض السلطة الكنسية للبابا والمجامع ؛ وهذه السلطة تشمل :

١ — مسألة الاعتراف .

٢ — مسألة الغفران . (وهو قائم على أن الأعمال الصالحة تدخر ليعطى منها الخاطئون) .

والاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب لاشك فى أن الاسلام ينكره أذ أساسه أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وبيع الغفران كذلك ينكره الاسلام ، ولايرى أن تزر وازرة وزر أخرى . بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وقد ساق الأستاذ فى إحدى تعليقاته شواهد كثيرة مما فاض به القرآن الكريم

هذه الأصول التى وجدت فى الأسلام جاء بها الاصلاح المسيحى ؛ فهل الأسلام هو الذى قدمها للمصلحين كما يقول الاستاذ الخولى ؟ أو من الممكن ان يكون سببها الرجوع ألى المسيحية قبل أن تشيع فيها البدع ، وقبل أن تخلق الكنيسة رسومها التى سيطرت بها على الناس ، وحاطتها بسياج من التقديس ؟

كل هذا ممكن ، ومن المرجح فى مسألة بيع الغفران أن الأصلاح فيها كان رجوعا ألى المسيحية ، واتباعا لنص الإنجيل . ولكن ما الذى لفت النظر ألى الرجوع لمصادر المسيحية الصحيحة ، أهو العقل وحده أو هو ما قدمه الاسلام من علم ومعرفة ؟ يستوى الأمر عندى فيه ؛ ومؤرخ الأديان من حقه أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدمه الأسلام .

(ب) الاكتفاء فى النجاة بتصحيح العقيدة ، دون حاجة إلى وساطة الكنيسة بين الله والناس :

وقد ربط الأستاذ الخولى هذه القاعدة بفلسفة الغزالى ؛ ووجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين حلقات ، تكون سلسلة ذلك الاتصال بالغزالى وفلسفته . والفكرة مرتبطة فى الوقت نفسه بالقرآن الكريم ذاته ، فهو ملىء بتقرير هذا الأصل — « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى الحديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنة .

فهذا أصل من أصول الاسلام عرض العلماء لبيانه ، ومنهم الغزالى فى فلسفة النفس ، واعتبارها جوهرا مجردا مستعدا للفيض الألهى .

هذا الأصل وجد فى الإصلاح المسيحى ؛ والعقل يرشد إليه . لذلك يصح التساؤل أهو مأخوذ عن الأسلام ؟ أو عن هدى العقل ، وهدى المسيحية الأولى ؟ ومن الممكن أن يستمر الأستاذ الخولى على رأيه فى أن الاسلام هو

الذى أعان عليه بما قدمه للعقل من علم ومعرفة ، ومعه مؤرخو الفلسفة الذين يتبعون الصلة من الغزالى الى لوثر نفسه .

(ج) اعتبار كلمة الله هى الضابط الوحيد ؛ وبعبارة أخرى جعل الحكم لله وحده :

وقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم إلا الله ، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا أنه يدرك حكم الله ، ولا ينشئ حكما ، فالله وحده صاحب السلطان . واتفقوا على أن ما جاء فيه وحى فمرده الى الوحى .

وفى التنزيل الكريم « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » — « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

فوجوب اتباع الوحى لا يختلف فيه أحد من العلماء ؛ قديمهم وحديثهم فى ذلك سواء . وإنما الخلاف فى أمور أقل شأنا من هذا ، مثل أن القياس حجة لأن النصوص لم تشتمل على حكم جميع الأشياء ؛ أو غير حجة لأن النصوص تشتمل جميع الأشياء . ومثل جواز تأويل ظاهر النصوص وعدم جوازه . وليس الظاهرية وحدهم هم المشددون فى اتباع النصوص ، وعدم التأويل ؛ بل لهم أسلاف فى ذلك من العلماء فليس مذهبهم جديدا .

هذا الأصل من أصول الاسلام بلاشبهة ، قد وجد فى الاصلاح المسيحى البروتستانتى ، وقبل الاصلاح بزمن مبكر . وإذا نحن أمعنا النظر نستطيع ادعاء أن كل من يعترف بالله ورسله ولم تفسد فطرته ، أو تحجب بأغشية الضلال ، يدرك بداهة أن شؤون الآخرة ، وطريق الوصول اليها مما يجب أن تكون الكلمة فيه للوحى ؛ وقد كانت الأديان قبل طروء الفساد عليها على هذا المبدأ . فالرجوع اليه قد يكون رجوعا الى المسيحية ، أو رجوعا الى مقتضى العقل . لكنا نرجع فنقول أن الاسلام قدم المعرفة ، وقدم أصوله الحقة للغرب . ووجه العقل والوجدان ، وأزال الأغشية عن البصائر ؛ فمن المحتمل جدا أن يكون له فضل هذا الأصلاح .

(د) لمن يكون حق تفسير الكتاب ؟ وتتصل هذه المسألة بحركة التوفيق بين الدين والفلسفة .

قد يكون الخلاف فى التفسير ومن له الحق فيه مما وجد عند المسلمين فى زمن مبكر ؛ فكان هناك من يحاول منع التفسير بالرأى ، وإن كانت الغلبة لمن يجيزه للعلماء القادرين عليه كافة .

وقد أقام رجال الكنيسة أنفسهم فى عهد السيطرة مقام المعصوم ، فأجازوه لأنفسهم دون غيرهم ؛ وجاء رجال الاصلاح البروتستانتى فأجازوه لكل مسيحى .

ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة وجدت فى الاسلام منذ وجدت الفلسفة عند المسلمين ؛ وإنكار ذلك أيضا وجد عندهم قديما وحديثا ؛ فالمسلم الفيلسوف ، يرى من الحق عليه أن يحاول التوفيق بين علمه ودينه ؛ لأنه يرى صحة الأمرين. وغير الفيلسوف يرى الحق لدينه فقط ، فينكر ماعداه. والفيلسوف غير المتدين يعد نفسه حرا طليقا لا يبالى ما يخالف الفلسفة ؛ وهذا أمر طبيعى وجد عند المسيحيين أيضا .

وقد أراد الأستاذ الخولى أن يربط ماتم فى الاصلاح البروتستانتى بما هو حاصل فى الاسلام لما عرف من صلة رجال هذا الاصلاح بالفلسفة المعروفة إذ ذاك ، والصلة القوية لهاتيك الفلسفة بالتفكير الاسلامى . وأنا أرى هذا شيئا قد يكون طبيعيا ، إذ لقى المسيحيون من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفى وحده للثورة عليهم ؛ وتحرر العقل البشرى من هذه القيود .

(هـ) إمكان تحول الخبز والخمر فى العشاء الربانى ألى جسد المسيح ودمه :

ولعل الأنكار فى هذه المسألة لا يحتاج ألى شىء أكثر من لفت النظر ، إلا أن العقول إذا خدعتها الخوادع اطمأنت الى مالا يحتاج إبطاله لكبير عناء . والأستاذ الخولى قد نظر فى تاريخ المسألة ، ووجد أن فكرة الاصلاحيين فى هذا التحول مأخوذة من فكرة فلسفية سابقة وفقت بين العقل الذى لا يطمئن

الى هذه الاستحالة ولا يسلم بها فى سهولة ، وبين الدين الذى يقرر هذه الاستحالة ، فانتهت ألى وجود المسيح بجانب الخبز والنبيذ ، دون استحالتهما حقيقة . ورأى أن الفلاسفة من أصحاب هذه الفكرة ربما تأثروا بالحل الاسلامى الذى انتهى اليه الموفقون بين الدين والفلسفة فى مسألة الأسباب والمسببات ، فقرروا أن المسببات توجد عند أسبابها ولا توجد بها .

ولعل الشبه بين المسألتين مما فيه محل للنظر ، فانى لا أشعر بقوته شعور الأستاذ الخولى بها .

(و) الثورة على الأصنام والصور وتحطيمها :

وربط هذه المسألة بقواعد الاسلام ، وملاحظة تأثيره فيها مما يطمأن اليه .

***

والآن وقد فرغت من تلخيص القسم الثالث من الرسالة ، لايجوز لى أن أختم القول دون إظهار إعجابى بسعة اطلاع الأستاذ الخولى ؛ وقوة صبره على الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه .

والأستاذ الخولى رجل يحب الجدل ؛ ولا يقتنع إلا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذى حبب ألى منازعته فى الرأى .

وإن ما قاله فى بحثه من أنه لا يدعى أن صلة الغرب بالشرق هى السبب الوحيد فى الاصلاح المسيحى لكفيل بأن يرد عنه النقد أو يخفف وقعه

وإذا علمنا أن الموضوع لم يحاول من قبل تملكنا الاعجاب بعمله .

وهذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هذه المسألة ، خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان ، دراسة مقارنة . فهى تعين على أداء رسالة الاسلام وتوسع أفق العالم المتدين ؛ وتزيده بصيرة فى دينه ؛ وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين . والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

محمد مصطفى المراغى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

١ — البحث العلمى النزيه ، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال ، خطوة صالحة ، فى سبيل السلام العالمى ، والأخوة الانسانية ؛ التى سمت أليها الروح الدينية العالية ، وحلمت بها الفلسفة منذ شروق شمس الحياة الفكرية ؛ ثم لا تزال تتطلع أليها العناصر الكريمة فى الحياة العاملة .

هو بحث يوسع أفق المتدينين ، ويدفعهم من التدين ألى أطهر معانيه ، على حين هو فى الوقت نفسه ، واجب علمى لخدمة الحقيقة ، يتولاه الباحثون فى تاريخ الأديان ، ومقارنتها .

٢ — والاتصال بين المسيحية والإسلام فى الشرق كان موضوع دراسات كثيرة (١) ؛ ولم يكن الاتصال — غير القصير — بينهما فى الغرب موضوعا لمثل تلك الدراسات .

والإصلاح البروتستانتى أكبر حادث متأخر فى حياة المسيحية بعامة ، وأكبر حادث فى حياتها الأوربية بخاصة . ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه ؛ ولهذا اخترته موضوعا للدراسة ، قصدت فيه ألى رسم الخطوط الأساسية ، والصورة الإجمالية لهذا الاتصال ، وذلك

---

(١) من مظاهر ذلك : ما فى دراسات العقائد ، ومجادلات أهل الدينين ؛ ومنه ما فى البدع والزيادات التى تأثر بها كل قوم من مخالطيهم ؛ ومنه ما فى دراسة الحياة الاجتماعية للأقطار التى جاور فيها المسلمون النصارى ، وما تأثر به هؤلاء وأولئك ؛ وفى كل هذه أبحاث متفرقة يمكن تتبعها .

التفاعل (١) بين الدينين الكبيرين ، تمهيدا لدرس أعمق من ذلك ، يتلوه إن شاء الله ؛ فى رعاية دائمة لحقوق البحث التاريخى النزيه ، المتصدى لطلب الحقيقة البريئة الرزينة .

٣ — وإنما أقصد الأسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه ، ثم أعمال ومظاهر دينية فى حياتهم ؛ وكذلك من حيث هو فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين ، وفلاسفة المسلمين ؛ فلكل ناحية من هذه النواحى آثارها .

وأقصد بالإصلاح المسيحى ، تلك الأعمال المادية والعقلية ، التى بذلت فى سبيل تغيير نظام الكنيسة الرومانية ، خلال قرون طويلة ، وأجيال متعددة ، حتى جاء « مارتن لوثر » ذلك الرجل الشجاع الذى صير الإصلاح حقيقة واقعة ، وعملا مقررا . فهذا هو الوضع التاريخى الصحيح لحركة الإصلاح .

٤ — ومنهجى فى ذلك الدرس طبيعى ؛ مرتب على أن أبحث : —

(١) عن الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا . ثم :

(٢) عن الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا . ثم :

(٣) عن آثار ذلك الاتصال فى أفكار الإصلاح المسيحى ، وآراء دعاته ؛ خلال تلك الأزمنة الطويلة

---

(١) عبرت بالتفاعل وفى النفس إن شاء الله أن أعمد ألى دراسة ما تأثرت به الحياة الاسلامية الدينية فى الغرب ، وافترقت به عن نظيرتها فى الشرق .

الفصل الاول

الاتصال المادى بين الدينين

١ — أظهر مظاهر هذا الاتصال بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين أخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ؛ المواجهة التى سعى فيها الشرق حينا ألى الغرب ، والغرب آناً ألى الشرق .

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الاسلام يواجه المسيحية على شواطئ البحر الأبيض المختلفة ، فما زال حتى ردّه بحيرة إسلامية أو تكاد ؛ فاحتكم فى شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، وألقى جرانه غربا بالأندلس ، واستقر فى تلك المواطن أزمنة تختلف طولا وقصرا . توطن فى أسبانيا وجنوبى فرنسا ، وإيطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية فى المشرق ، وامتد فى فترات متقطعة إلى غير ذلك من الغرب ؛ ففتح المسلمون نابل (نابولى) وجَنْوة (جنوة) (١) ، وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع ، حتى استنقذها البابا (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكى فرنسا وألمانيا . هـذا ألى غارات لهم على مختلف المدن فى أنحاء إيطاليا (٢) . كما امتلكوا بعض شواطئ نهر ردونه (الرون) ، ووصلوا الى لودون (ليون) (٣) ، وامتلكوا صخرة أبنيون ، (أفينيون) (٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٩ (ط . مصر) .

(٢) سيديو Sedeillat : خلاصة تاريخ العرب ؛ ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٣) رينو M. Renaud : كتاب غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا الى سافواى ، وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى ؛ حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين . وهو أحد الكتابين اللذين ترجمهما الى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط : ص ٧٨ عربية .

(٤) رينو : المصدر السابق ص ١٠٤

وأقاموا بها بضع سنوات ، وتلك الصخرة هي التي كانت فيما بعد مقر البابوية بضع عشرات من السنين في القرن الرابع عشر . وكانت منطقة « الألبيجوا » التي تنسب أليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان غاراتهم (١) ؛ وتوطنوا إقليم (سبتمانية) مما يلى جبال البرتات من جنوبي فرنسا ، وإذا ما خرجوا منه لم يلبثوا أن يعودوا أليه (٢) . وكذلك ظلوا في بعض جهات جنوبي فرنسا من أواسط القرن الثامن الميلادى ألى القرن العاشر على رأى بعض المؤرخين (٣) .

٢ — واتصلت بذلك الفتح المنظم حركات عصابات إسلامية قوية استوطنت فراكسينت ، على حدود فرنسا وإيطاليا ، ولبثت في تلك المنطقة وما حواليها حتى القرن العاشر الميلادى ، واحتلت مضايق الألب بحيث وقعت طرق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا في قبضتهم (٤) ؛ بل عوهدوا على الإذن بالمرور منها معاهدات منظمة ؛ وهكذا أقاموا في سافواى ، وجالوا في جميع أنحاء سويسرا بلا معارض (٥) ، وانتهى بهم الأمر ألى استيطان هذه المناطق من أوربا والاستقرار فيها ، فزرعوا وعمروا ، وتزوجوا ونسلوا (٦) .

* * *

ثم جاء دور الغرب في أعقاب ذلك توًّا ، فرمت أوربا الشرق بأفلاذ أكبادها

---

(١) رينو : المصدر السابق ص ٧٣ .

(٢) سيديو : ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٣) رينو : المصدر نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ - ١١٤ .

(٤) رينو : المصدر نفسه ص ١٦٧ ؛ سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .

(٥) رينو : المصدر نفسه ص ١٧٦ ؛ سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .

(٦) فرديناند كلر Ferdinand Keller : كتاب غارات العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر ، وهو الكتاب الثاني من الكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب تحت عنوان «غزوات العرب في فرنسا ...» : ص ٢٥٨ ؛ وسيديو : الخلاصة ص ١٦٢ .

فى الحروب الصليبية التى دامت قرونا ؛ وأسس الصليبيون على الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض ، إمارات أوربية مسيحية ؛ واستولوا أحيانا على بيت المقدس ، واتصلوا فى ذلك كله بقلب الشرق ، من مصر وسوريا ، وأطراف العراق وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق فى دياره ؛ بعد ما قدم الشرق نفسه ألى الغرب فى داره .

ويتلو هذا الدور اتصال الصراع بين الاسلام والمسيحية على حكم أسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، عهد الاصلاح المسيحى الذى نتحدث عنه .

هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق ، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة للاتصال بين الدينين . وها نحن أولاء نشير ألى بعض ذلك :

***

٤ — فى هذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الأسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيانا ألى أن يُفْدوا ، ويعودوا ألى بلادهم ألسنة تعريف بما رأوا وسمعوا ؛ بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها . ولقد عرفت أوربا من هؤلاء الأسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذى دعوه « ليون الأفريقى » وما هو إلا أبو على الحسن بن محمد الوزان الغرناطى الفاسى ، الذى أسره القراصنة ، فى عودته من لدن السلطان سليم العثمانى ؛ وقد كان سفَر لديه عن ملك فاس مهنئا له بالتغلب على المماليك فى مصر والشام وفلسطين وبلاد العرب ؛ وأهداه القراصنة ألى البابا ليون العاشر ، فحبسه فى قلعة القديس أنجلو ، بروميه ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية على يد ثلاثة أساقفة ، وعمّد بعد ذلك فى كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذى أعطاه اسمه « حنا ليون » . ومن هنا عرف باسم ليون الأفريقى ؛ وظل بأيطاليا عهدا عاد بعده ألى أفريقية وعاد ألى إسلامه ؛ وهناك كتب الوزان كتبا كثيرة قيمة ، نذكر من بينها

مما يعنينا : كتابه عن « القانون والعقيدة الاسلامية (١) » . وكان أسر الوزان وحياته فى أوربا إبان ثورة الأصلاح بين سـنة ١٥١٦ — ١٥٢٩ م . على أنى إنما ذكرته مثالا فحسب ، لبيان ما قد يكون من التأثر والتأثير الدينى بالأسرى ، والنازلين من أهل الدينين فى الشرق والغرب ، لا لأنا ندعى له بنفسه أثرا خاصا فى حياة الإصلاح المسيحى .

***

٥ — وما إن يتمادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداة اتصال مباشر بين المسيحية بأهلها فى الغرب ، والإسلام بأهله فى تلك المناطق ، إذ نشهد صفوفا من المسيحيين الأوربيين يقاتلون تحت اللواء الاسلامى : إما عن طريق جعل الأسارى المسيحيين وسبيهم جنودا ، وإما عن طريق تقدمهم الى تلك الخدمة عن طيب خاطر (٢) ، فى جيوش المسلمين بالأندلس ، بل جيوشهم فى بلاد المغرب أيضا ، إذ يحدثنا ابن خلدون فى المقدمة (٣) أنه « نظرا لضرب المصاف وراء العساكر ، وتأكده فى قتال الكر والفر ، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج فى جندهم ، واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر » .

وكانت جيوش ملوك الأفرنج أيضا قد تنتظم جندا من المسلمين : إما عن طريق تلك الغلبة ، كالذى يروى من اتخاذ « رجار » ملك صقلية لجملة من العبيد المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له منهم

---

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة ليون Leone . وقد كتب الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدى ابن الشيخ الحجوى الفاسى بحثا عن الوزان قدمه لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٣٣ كما أفردت حياته بالمؤلفات فى الايطالية .

(٢) رينو : المصدر نفسه ص ٢١٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٨ (ط . مصر . عبد الرحمن محمد) .

جملة كبيرة ، هم أهل دولته (١) . وإما على سبيل الاستعانة بهم كما يروى أن فردريك الثانى هو هنشتاوفن أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الآتى ذكره ؛ قد اتخذ فى جيشه الجند المسلمين (٢) ؛ فكانت صفوف الجند فى الغرب مجالا لالتقاء أهل الدينين ومخالطتهما ، سواء فى ذلك الجيوش الأسلامية ، والجيوش المسيحية .

***

٦ — ونلمح فى تاريخ القتال بين أهل الدينين ، ضربا من الدعاية السياسية التى تمس النواحى الدينيـة ، إذ يروى لنا تبادل المتقاتلين نشرات للدعاية الموهنة للقوة المعنوية ، وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ؛ ففى حروب

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٨ ط . مصر —
وتقرأ فى تراث الاسلام : جـ ١ ص ٨ من الترجمة العربية مانصه : « ونرى عددا من حكام قشتالة يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ، ويستخدمون مهندسين مسلمين ، ويستمعون ألى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بخير ما فى الثقافة الأسلامية » . وفى ص ٢٣٢ منه ما نصه : « على أن المغـيرين النورمانديين والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية برعايتهم وأخـذوا بالعادات الإسـلامية أخذا شاملا » ؛ كما تقرأ فيه أيضا جـ ١ ص ٥٤ : « إن ألفونس السادس كان بلاطه مسيحيا اسما ، وإنه أعلن نفسه أمبراطور العقيدتين » .

(٢) روى ذلك الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على ترجمة كتابى : رينو وكلر ؛ وكرره فى ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ . وقال الأستاذ إرنست باركر فى كتاب تراث الاسلام ص ١٣٥ جـ ١ من الترجمة العربية الحديثة « إن فردريك الثانى استخدم جيشا عربيا ضد البابا . وفى حـ ٢ من تراث الاسلام ص ٣٣ تعليقة ٢ نقلا عن مدام ديفونشير ذكر قلعـة « لوسيرا التى اتخـذ فيها فردريك الثانى مسلحة من الجنود العرب » .

نقفور فوقاس الثانى (١) أمبراطور بيزنطة ، مع المسلمين — فى القرن الرابع الهجرى — أرسل الروم الى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (٢) ، يفخر فيها نقفور بماضى انتصاراته ، ويعلن عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الاسلامية إذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، الى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين .

وقد تولى الرد الاسلامى على هذه القصيدة ، الفقيه الشافعى العظيم محمد بن على بن اسماعيل القفال الكبير الشاشى ، إذ كان بين جنود الجيش الاسلامى ، فنظم قصيدة فى (٧٤) بيتا ، فيها إلى جانب السياسة أمور دينية عن خطأ المسيحيين فى اعتقادهم ، واضطراب أناجيلهم ، وما الى هذا . (٣)

---

(١) من الطريف ، ونحن بصدد الحديث عن الاتصال الدينى بين المسيحية والاسلام أن نذكر الرواية الاسلامية عن أصل هـذا الأمبراطور البيزنطى ، فقد جاء فى الكامل لابن الأثير . جـ ٨ ص ٢٠٠ ط مصر . مانصه : ـ «ولم يكن ـ اى نقفور ـ هذا نصرانى الأصل ، وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس ، تنصر وكان ابنه هذا شهما شجاعا حسن التدبير لما يتولاه ، فلما عظم أمره ، وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله ، وملك الروم بعده ؛ وجعل نقفور همته قصد بلاد الاسلام والاستيلاء عليها » اهـ بلفظه .

ولست أقف هنا لتحقيق هذا ، وإنما أكتفى بما فيه من إشارة الى المصادر المختلفة للاتصال بين الدينين ؛ والتمهيد القوى للتبادل الفكرى ؛

وقد حكم نقفور هذا من سنة ٩٦٣ م — سنة ٩٦٩ م .

(٢) منها نسخة خطية فى جزء صغير بمكتبة فينا ، تزيد أبياتا عما أورده صاحب طبقات الشافعية ؛ ومعها رد الشيخ القفال كما ساقه صاحب الطبقات .

(٣) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٧٩ وما بعدها . ط مصر — وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هـذه القصيدة النقفورية بقصيدة أخـرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكى أيضا بعـد ما قال « وكانه ـ ابن حزم ـ لم يبلغه جـواب القفال » .
وسنشير الى هذا الرد فيما يلى فقرة (٧) .

فمثل هـذه الدعايات التى يقصد بهـا الفت فى عضد الجيوش ، مما يقع بين المتقاتلين ؛ وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعرى أو غيره بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ؛ إذ كانت الاعتبارات الدينية هى التى تسيطر على الحيـاة ، وتسود العواطف فى تلك الأعصر .

***

٧ — ونلاحظ أن تلك الحروب كانت تخلق ما نستطيع أن نسميه باصطلاح هذا العصر « نقطـا دينية » فى الأنحاء المسيحية كالنقط العسكرية للدول القوية ؛ إذ نجـد الأخبار عن مسجد إسـلامى بالقسطنطينية يظهر أن المسلمين قد أنشئوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام ترددهم لغزوها فى القرن الأول الهجرى ؛ إذ يذكر ابن حزم فى رده على قصيدة نقفور السابقة مسجدا قديمـا انشأه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

ومسلمة قـد داسها بعد ذا كم ‌ ‌ بجيش لهام كالليوث الضراغم
وأخـدمكم بالذل مسجدنا الذى ‌ ‌ بنى فيكموا فى عصرنا المتقادم (١)

وغزو مسلمة بن عبـد الملك هـذا كان فى أواخر القرن الأول الهجرى (٩٨ هـ — ٧١٦ م) .

فلعل هذا المسجد ظل قائمـا بالقسطنطينية حتى كانت عمارته والعناية به ، ممـا يدخل فى تنظيم العلاقة بين المسلمين والروم الشرقيين إذ نقرأ أنه فى سنة ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك ، وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصـلاة ، والخطبة لطغرلبك (٢) .

وفى سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م . وافى كتاب ملك الروم بالقسطنطينية يخبر

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٨٥ ط . مصر .
(٢) تقى الدين المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٢ ط . مصر سنة ١٩٣٤ .

بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنون والقراء ، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (١) .

ويبدو أن هـذه النقطة الاسـلامية لم تكن مسجدا فحسب ، بل كانت جالية إسلامية تنزل القسطنطينية قبل فتحها العثمانى ببضعة قرون ، إذ تجد أنه فى سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م ورد كتاب ملك الروم يتضمن أن كلمـة الروم قد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسلمين ، وأمرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، وأنه عمر جانبا منه ، كان انهـدم ، من ماله ؛ فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من أقامة الجمعة والجماعة بها (٢) .

هذا هو ما دعوته النقطة الدينية فى بلاد مسيحية ؛ وما رأينا أن تأمينه يدخل فى حساب العلاقات السياسية ؛ ومن المحتمل أن تكون قد وجدت نقط أخرى ، ومعاقل دينية من هذا القبيل فى غير القسطنطينية . وكان لها نصيبها فى وصل مابين الأسلام والمسيحية فى الغرب وتعريف أحدهما بصاحبه .

***

٨ — وتلك الصلات الحـربية والسياسية تحـوج ألى تبادل الوفود بين الجيوش والحـكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفى هذه الوفود نرى نزوعا خاصا من المسلمين والمسيحيين ، ألى اختيار رجال دينيين ، يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية ، التى كانت تجرى عند التقابل ، حتى فى الحفل الرسمى الذى يقام لاستقبال السفير الوافد ؛ وشاهد هـذا من الجانب الاسلامى ، ما نراه فى اختيار مثـل القاضى أبى بـكر محمد بن الطيب

(١) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٠٤ ط . مصر .

(٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٢٩ ط . مصر .

الباقلانى (٤٠٣ هـ) للسفارة بين المسلمين والروم الشرقيين (١) . وفى الغرب

---

(١) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٧١ هـ . أنه : فيها أرسل عضد الدولة القاضى أبا بكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلانى ألى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه .

وألى القارئ بعض ما وصلنا من مناقشات القاضى لرجال المسيحية من الروم :

دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به ، كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة ، أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ؛ أما علمت أنا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد ! ! . فقال القاضى أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ؛ وتنزهونهم فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى .

وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له : أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ . . فقال له القاضى أبو بكر : هما اثنتان ، قيل فيهما ما قيل ، زوج نبينا ، ومريم بنت عمران ؛ فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها . وكل قد برأها الله مما رميت به .

وكان القاضى الباقلانى مبعوثا سياسيا ، سريع الخاطر لبقا ؛ رووا أنه فى هذه الرسالة عرف الأمبراطور خبره ، ومحله من العلم وموضعه ، فاعتقد أن القاضى لن يكفّر له أذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ؛ فاحتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال فى حجرة ، لها باب لطيف ، لا يمكن أحدا أن يدخل منه إلا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ، ليدخل القاضى راكعا ، فيكون ذلك عوضا من تكفيره . فلما ذهب القاضى سار حتى وصل ألى المكان ؛ فلما رآه فطن ألى القصة ، فأدار ظهره ، وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب ، وهو يمشى ألى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهره ، حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه ؛ وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا . رحمه الله .

ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ٢١٨ — ٢١٩ ط دمشق .

برى « أوتون » ملك جرمانيا فى القرن العاشر ، يعنى بأن يختار عالما لاهوتيا يعتمد عليه فى المناقشة الدينية مع المسلمين ليبعثه ألى قرطبة ، فيختار راهبا من رهبان دير جورز (Gors) بقرب ميتز ، إسمه « جان » عرف بضلاعته فى اللاهوت ؛ وقد حاول فى تلك البعثة أن يقنع الخليفة « الناصر » الأندلسى باعتناق المسيحية . كما تشير ألى ذلك الرواية الأوربية (١) .

***

٩ — ومن آثار ذلك الاتصال المادى أن الاستعمار الاسلامى إذا ما انحسر عن الأقطار الغربية ، ترك فلولا بل جموعا تطويها اللجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية ، فتدخلها فى المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح ، وطرق تعريف بالاسلام ؛ وهكذا كان الأمر عند ما استردت جزر البحر الأبيض من الاسلام ، كقبرص ، وأقريطش ، ورودس ، وصقلية ، وغيرها من مناطق الاستعمار الأسلامية فى أوربا ، فتنصر أهلها وبقوا مسلمين مغلوبين . عبيدا أو كالعبيد . وها هو ذا الرحالة الأسلامى الكبير أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير ، يحدثنا عن قصة لأحد فقهاء حاضرة جزيرة صقلية بعد استيلاء النورمنديين عليها ، فى معرض سوء حالهم الدينية إذذاك ، فيقول : « . . فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى هى حضرة ملكهم الطاغية ؛ ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية ؛ وربما طرأ حكم إسلامى فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين » (٢) .

وستسمع فيما بعد — الفصل الثانى فقرة ٨ — أن راهبا كان مسلما ثم تنصر ،

---

(١) رينو : المصدر السابق — ص ١٧٧ من الترجمة العربية .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ط . بمصر .

قـد ساعد فى ترجمة القـرآن ألى اليونانية (١) ؛ وأن رئيس حصن مستعمرة فراكسينت الاسلامية التى سبقت الاشارة أليها قد تنصر حين هزم ، وتنصر معه آخرون ، كما بقى بعض من معه مسلمين أرقاء فى تلك المنطقة (٢) .

وقد كان من آثار ذلك أن وجدنا أقليات إسلامية فى أنحاء مختلفة من أوربا ، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة ؛ ففى فـرنسا كان من المسلمين ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، عـدد يهتم به مجمع الأساقفة فى « طرّكونة » بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م . فيصدر أمرا بأجبارهم على اتخاذ زى خاص بهم (٣) ؛ كما كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من عذاب الاضطهاد ألى المسيحية ، يعتنقونها ، فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر إرهاقهم بعد اعتناقها بأشد ما يمكن ، حتى أصدر البابا كليمنضوس الرابع سنة ١٢٦٦م منشورا عنف به رئيس دير لتعذيبه رجلا مسلما غنيا كان قد تنصر ، فزعم هذا الرئيس أن تنصره غير حقيقى ، توصلا بذلك ألى ضبط أملاكه وحرمان أولاده منها (٤) .

ويتحدث حتى اليوم عن أسر فى جنوب فرنسا لا تزال تحمل اسم « سارازان » ومن بين رجالها من له شأن علمى (٥) ، وما ذلك إلا أثر لما

---

(١) الدرة النفيسة فى شرح حال الـكـنيسة ؛ المترجم عن اليونانية من مختصر تاريخ استفانوس قوميطا ؛ المقتطف من تاريخ ملاتيوس مطران أثينا الـكنايسى : ط . أورشليم سنة ١٨٦٧ م .

(٢) رينو : المصدر نفسه ــ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ من الترجمة العربية .

(٣و٤) رينو : المصد رنفسه ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ من الترجمة العربية .

(٥) تعليق للأمير شكيب أرسلان على ترجمته لـكتاب رينوص ٢٢٨ ، يذكر فيه وجود تلك الأسر فى فرنسا وفى سويسرا أيضا ؛ ويسمى منها العالم الفيلسوف أبو زيد (Abauzit) المعاصر لفولتير و روسو ، ونيوتن ، وصديقهم جميعا .

كان من تنصر عدد كبير من المسلمين فى فرنسا ؛ كما كان عدد الفرنسيين الذين اتخذوا الاسلام دينا أكبر ممن تنصر (١) .

ويتصل بهذا ما يحدثنا به ياقوت فى معجم البلدان عن وجود مسلمين فى بلاد «هنجاريا» ـ المجر ـ التى يدعوها «الهنكر» (٢) فى القرن الثالث عشر الميلادى.

---

(١) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ من نص المؤلف .

(٢) فى مادة باشغرد ـ ج ٢ معجم البلدان لياقوت يقول : « ... وأما أنا فإنى وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية ، فى مملكة أمة من الأفرنج يقال لهم « الهنكر » ونحن مسلمون رعية لملكهم ؛ فى طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ؛ إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شىء منها سورا خوفا من أن نعصى عليه ، ونحن فى وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعنى رومية ؛ والبابا رئيس الأفرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ؛ ينفذ أمره فى جميع ما يتعلق بالدين فى جميعهم . قال : وفى غربينا الأندلس وفى شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ؛ قال : ولساننا لسان الأفرنج ، وزينا زيهم ونخدم معهم فى الجندية ، ونغزوا معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفى الاسلام ؛ فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ـ قلت وهو يذكر فى صدر المادة خبر بعثة الخليفة المقتدر بالله الى ملك الصقالبة الذى كان قد أسلم هو وأهل بلاده ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاسلامية ـ وسكنوا بيننا وتلطفوا فى تعريفنا » الخ ما يذكره من زيهم وعاداتهم وبعد بلادهم ص ٣٧ ـ ٣٩ ج ٢ ط . مصر .

هـذا والأسلام اليوم فى المجر قليل مستضعف ، لا يـكاد يوجد إلا بين نفر من متخلفى الألبانيين ونحوهم فى تلك البلاد .

***

١٠ — تلك مظاهر اتصال مادية ترجع ألى الحرب بين الشرق والغرب ، وما يتصل بها من وفادة وما أليها .

وثمت أعمال سلمية لها أهميتها فى مثل تلك الصلات بين الدينين ؛ فرجال الحكم أنفسهم حين لا يحاربون ، تدفعهم مطالب السياسة ألى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة ؛ ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الدينى ، ويهيىء التفاهم القريب ، كالمصاهرة ؛ فنرى فى الشرق الأمبراطور — كانتا كوزينو — الذى سنعرف أنه ترهب وترجم القرآن — يصهر ألى السلطان العثمانى أورخان ، ويحمل اليه ابنته « تيودورة » التى تقيم على دينها فى قصره (١) .

ونرى فى الغرب نفرا من أولى الأمر فى الأندلس يتزوجون أميرات غربيات ؛ فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة الملك لذريق (٢) ؛

---

(١) روبرتسون وليم (R . William) مقدمة تاريخ شارلكان — الترجمة العربية ص ٣٧٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٨ ط مصر . ويقال أن عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين . وفى هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير ؛ فقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه ؛ كما كان يفعل زوجها رذريق . فقال لها أن ذلك ليس فى ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذى كان يجلس فيه ، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصير كالراكع فرضيت به ، وصار كالسجود عندها . فقالت له الآن لحقت بالملوك ، وبقى أن أعمل لك تاجا مما عندى من الذهب واللؤلؤ ، فأبى فلم تزل به حتى فعل ؛ فانكشف ذلك للمسلمين ، فقيل تنصر ، وفطنوا للباب ، فثاروا عليه فقتلوه .

كما تزوج زياد بن النابغة التميمى أحدى بنات ملوك الأندلس (١) ؛ وتزوج عثمان بن أبى نسعة ابنة دوق أكيتانه (٢) وغيرهم . بل إن العناد السياسى قد دفع ببعض أمراء المسلمين الشاغبين الى أن يصهر الى بعض ملوك الفرنجة ، ويزف اليه ابنته ، كما فعل موسى بن زياد والى سرقسطة ، أيام محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٢٣٨ — ٢٧٣) إذ عزله الأمير فعصى عليه ؛ وكان أن زوج ابنته من أمير نفارة المسمى غرسية (٣)

فكان فى هذه الصلات وأشباهها مما كثر ولا بد فى عمل الأفراد ؛ ما يعرف كل دين بصاحبه فى الغرب تعريفا قويا .

***

١١ — وإذا سعى رجال السياسية بعضهم إلى بعض ، فقد سعى مثل هذا السعى رجال الدينين أيضا فى سلم أو مايشبهه حينا ، وفى حرب أو مايشبهه حينا بغية نشر الدين ، وكسب الأتباع ؛ وعندنا من مثل هذا الاتصال بين رجال الدينين فى الشرق ، وتناقشهما الدينى مالا نحب أن نعرض لتفصيله ؛ وإن كنا لا ننسى أن لهذا الاتصال الشرقى ، أثره فى الغرب ، إذ ظلت الكنيستان الشرقية والغربية متحدتين إلى القرن العاشر الميلادى ، كما لم ينقطع التعاون بينهما بعد الانفصال على رد الهجمات الاسلامية الاعتقادية وغير الاعتقادية .

وفى الغرب نفسه نجد ذلك السعى إلى التبشير بين المسلمين ؛ فسان فرنشسكو رأس الرهبنة الفرنشيسكانية — ق١٣ م — يرحل إلى الشرق من أجل ذلك الغرض ، ويتقدم إلى معسكر الملك الكامل الأيوبى بدمياط سنة ١٢١٦ م ليدعوه إلى

---

(١) أخبار مجموعة ط مدريد ص ٢٠

(٢ ، ٣) محمد دياب بك : تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٩ ، ١٧٦ نقلا عن مصادر غربية .

اعتناق المسيحية (١) . و « ريموند لول » تضطرم فى نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية فى حياته (٢) . ونرى « بابات » رومية أنفسهم يشاركون فى هذه الدعوة بالمكاتبة ، فيرسل البابا بيو الثانى (Pio 2) الى السلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية فى يده رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية ؛ ويناقش فيها تفاصيل فى الدينين ، الاسلام والمسيحية (٣) .

فهذه أمثلة تصور لنا الرغبة القوية فى الدعاية للمسيحية ؛ تلك الدعاية التى تقوم بلا شك على معرفة غير قليلة بالاسلام يحتاج إليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة .

***

١٢ — ووراء هذا الاتصال حربيه وسلميه ، تلك الحياة المدنية العادية ، التى لن تخضعها للعزلة المواضعات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادّتها ؛ بل تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ؛ وعلى هـذا الأساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهم الاقتصادية قلب أوربا ، وأقصى شمالها وغربها ، مما كانت تطول مدته سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطئها .

ونقرأ طرفا من وصف تلك الأسفار فى كتب الجغرافيا العربية ، وكتب

---

(١) الكونت هنرى دى كاسترو : الاسلام . خواطر وسوانح ص ١٨٦ — ١٨٧ من الترجمة العربية .

(٢) فيورنتينو (Fiorentino) : مختصر تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٥ وألفريد وليام (A . Yiullaume) تراث ؟ الاسلام ص ١٧٢ .

(٣) الكونت هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٦٦ — ١٦٧ من الترجمة العربية .

الرحلات (١) . ولهذه السياحات أثرها فى صلة الشعوب والأديان ، على نحو ما نرى فعله اليوم مثــلا فى نشر تجار المسلمين لدينهم فى قلب أفريقــا ، فهل تكون رحلاتهم القديمة فى قلب أوربا غير ذات أثر فى التعريف بالاسلام ! ! !

وكذلك كان يرحل تجار الغرب ألى الشرق بحكم غناه ورقيه ، وقد كثرت تلك الرحلات ، واتصلت بعــد ما مهدت الحروب الصليبية منذ أول عهدها للاختلاط القوى ، وزادت التعارف بينهما .

وألى جانب ذلك رحلات غير التجار من الغربيين لأغراض مختلفة ، من نزهة وتطبب ، واستفادة ، ووصفهم لما يشهدونه فى الأقطار الأسلامية فى كتب رحلاتهم وأحاديثهم ، مما كان قد ينطوى فى تلك العصور على غــير قليل من الأخطاء فى التعريف بالشرق والأسلام ؛ لــكنه عامل له قيمته فى وصل ما بين الدينين على كل حال .

فتتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالــكثير من آراء الاسلام وعقائده ؛ تعــريفا لا بد أن يكون له أثره بفعل النواميس الــكونية فى حياة الأفــكار والآراء والعقائد ، من حيث تأثير بعضها فى بعض .



(١) أمين الخولى : رسالة فى السياحات الاسلامية — مخطوطة .

الفصل الثانى

﴿ الاتصال المعنوى بين الدينين ﴾

١ — فى الوقت الذى كانت تجنح فيه الأمة الأسلامية (١) إلى الاستقرار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا ؛ خلال المدة من القرن الثامن ألى الثالث عشر الميلادى ، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية فى الغرب غافلة هامدة .

كان فيه ما هو صورة أمة أو حكومة ، لـكن لا أمة ولا حكومة (٢) : الأشراف فيــه جهلاء ، أميون ، حتى ليوقعون الوثائق والقوانين المهمة ، بصورة صليب ، هى كل ما يعرفون من الامضاء ؛ وحتى ليرى فى القرن التاسع الميلادى ، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاة الدولة أميا لا يكتب ؛ بل فى القرن الرابع عشر ، كان رئيس الجيوش الفرنسية ، وأعظم رجال الدولة ، وأول أكابر عصره أميا (٣) .

---

(١) آثرت أن أصفها « بالأسلامية » لا « بالعربية » ، لأن الوصف الأول هو الصحيح فى التاريخ ؛ إذ لا يصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ؛ فقد كانت بعد يسير من ظهور الاسلام ؛ بفضل انتشاره وامتداد حركة الفتح ، مؤلفة من عناصر مختلفة ليس العرب أكثرها .

(٢) م . جيزو (M. Juzot) : التاريخ العام للحضارة فى أوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ... وهو المترجم ألى العربية تحت عنوان التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأورباوية ؛ على يد الخـواجه حنين نعمة الله خورى والمطبوع بالاسكندريه سنة ١٨٧٧ م — ١٢٩٤ هـ

وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب ص ٦١٤ .

وروبرتسون وليم : كتاب تاريخ شارلـكان ؛ المقدمة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٢١٦ من الترجمة العربية .

(٣) المصادر السابقة نفسها .

وكان الدين المسيحى قـد صار ألى بدع بربرية وأكثر رجاله جهلة ، لا يستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع . والقلة المتعلمة منهم كانوا يمضون وقتهم فى الأديرة ، يمحون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الأوراق اللازمة لنسخ الـكتابات الدينية (١) .

***

٢ — فى هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوى بين الأسلام والمسيحية ؛ ذلك الاتصال الذى لا نريد الإفاضة فى وصفه ؛ بل نناله بقدر ما نبين طرائق نقل المعارف الدينية وأثرها فى الحياة المسيحية ، وفى العقلية المسيحية ، وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما ألى هـذا مما هو طريق لبيان ما قصدنا أليه من صلة بين الدينين .

وإذا كان يستـكثر إطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب فى كل شىء وأن كل العلماء المعروفين من جميع الأمم ألى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر إنمـا كان كل عملهم هو تقليـد العرب (٢) ، فلا مفر من القول بأن الثقافة الأسلامية قامت بدور المرشد الأمين ، وأمدت متعلمى القرون الوسطى بمـادة كثيرة لدراستهم (٣) .

---

(١) المصادر السابقة نفسها .

(٢) فيبر (Weper) : كـتاب تاريخ العـالم (Weltgesehichte) ج ١ فقرة ٤٤٤ ص ٨٠٦ .

وروبرتسون وليم : المصدر السابق نفسه ص ٢٩٩ .

وجوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ .

(٣) ر . وليم : المصـدر السابق ص ٢٩٩

وجويدودى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٥ .

والفريدجيوم : تراث الاسـلام ص ٢٤٣ من الأصـل و ص ٢٣٤ ج ١ من الترجمة العربية التى نشرتها حـديثا لهذا الـكتاب « لجنة الجامعيين لنشر العلم » .

***

٣ — وأول مابدأ ذلك الاتصال ، كان بالتعلم من مسلمي الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتثقف فيها الخاص والعام ، ومرجع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ؛ وقد كانوا بادئ الأمر قليلين ، ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم .

وإذا كان قد يشك فى أن البابا سلفستر الثانى نفسه « سنة ٩٩٩ م » ، قد تعلم على العرب فى بلادهم ، فلن يشك أبدا فى أن كثيرين غيره قد تعلموا فى هذه البلاد.

ثم تلا هذا الدور دور محاولة نقل المعارف ألى أنحاء أوربا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يتهمون بالسحر (١) .

ونمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى ؛ لنرى قسطنطين الأفريقى الملقب بمعلم الشرق والغرب ، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب فى ترجمة العلوم عن العربية (٢) .

ويطرد هذا النماء فنرى فى القرن الثانى عشر مثل يوحنا بن داود الأندلسى اليهودى ، وجيرار الكريمونى . الذى ترجم وحده ما لا يقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا ما بين صغير وكبير (٣) .

---

(١) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ .

الخورى عيسى أسعد :الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

(٢) أرتورو كاستيليونى (Arturo Castiglioni) الأستاذ بجامعة يادوفا : كاتب مادة قسطنطين الأفريقى فى دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٣) كارلو ألفونسو نللينو (Carlo Albhonso Nallino) الأستاد بجامعة روما وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة — جيراردو — من دائرة المعارف الايطالية الجديدة . (Gherardo)

وأفـلاطون التيفولى يترجم المعارف الأسلامية عن العـربية والعبرية .
وآخرون غيرهم .

بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون فى نواح مختلفة من أوربا ؛ ففى صقلية ، ونابلى وطليطلة ، وقشتالة ، وفرانسا ، تقام تلك المعاهد ؛ ونرى ملوكا أقوياء ، يبذلون جاههم ومالهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها ، على نحو ما كان فى قصور ملوك الشرق المسلمين .

ومن أكبر هؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم ، فردريك الثانى هوهنشتاوفن الألمانى أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وحاكم صقلية . وألفونس الحـكيم القشتالى ، فتحت إشرافهما اشتغل مترجمون من أنحاء مختلفة فى أوربا . وكان « سكوت ميخائيل الاسكـتلندى » ، فى حاشية فردريك المذكور ، يشرف على الترجمة الجـديدة لأرسطو ، وتفاسير فلسفته الأسلامية من اللغة العربية ، ألى اللغة اللاتينية (١) مع آخرين من جنسيات مختلفة ؛ كما كان الحال كذلك تحت إشراف ألفونس الحـكيم فى القرن الثالث عشر نفسه .

وأعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء فى الأمة الأسـلامية . فـكان ألفونس الحـكيم يصحح بنفسه مايترجم ألى اللغة القشتالية (٢) ؛ ومنفريد بن فردريك هوهنشتاوفن يترجم بنفسه (٣) .

ولا نملى للقلم فى وصف حركة هذا النقل لئلا نبعد عن موضوعنا ، فنكتفى بأن نقول فى إجمال إن الثقافة الأسـلامية كانت منتشرة فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى (٤) .

---

(١) دائرة المعارف الانجليزية مادة سكوت . (Scot)

(٢) ماريو كاسيلا (Morio Casella) الأستاذ بجامعة فيرنسة الايطالية كاتب مادة « الفونسو الحـكيم » فى دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٣) مادة منفريد من الدائرة الايطالية الجديدة .

(٤) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧ — وأن حركة الترجمة عن العربية فى أوربا خلال القرون الوسطى لتستحق الدراسـة المفردة ، —

وإنما يجب أن نتولى بالتفصيل نقطا ثلاثا ، تمس موضوعنا مسا قويا تلك هى :

(١) معرفة الأوربيين للغة العربية ، لغة المعارف الأسلامية والدين الأسلامى .

(٢) الاتصال الفلسفى بين أوربا والأمم الأسلامية ، لما كان هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية فى تلك الأزمنة .

(٣) معرفة الأوربيين للعلوم الدينية الأسلامية بخاصة .

١ — اللغة العربية فى أوربا

٤ — لا شك أن اللغة العربية من أقرب الطرق لمعرفة الشئون الأسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو إذا كان انتشار اللغة العربية فى أوربا مظهرا له قيمته فى درجة الاتصال بين الأسلام والمسيحية الغربية .

ولقد رأينا فى الفقرات السابقة ، أن الأمم المجاورة للدول الأسلامية تكاتبها بالعربية شعرا ، على مثل ما فى قصيدة تقفور « فصل ١ - فقرة ٧ » . ونرى الأسبانيين جيران المسلمين فى الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية ألى المسلمين فى الأندلس والمغرب (١) . وكما نجد

= وأرجو أن أصل من ذلك إلى ما يكشف جليا عن هذا الجانب من صلة الشرق بالغرب ، كما أهيب بالباحثين أن يعنوا بالنواحى المختلفة من انتشار الثقافة الشرقية بعامة ، والأسلامية بخاصة فى أوربا لهذا العهد ، استيفاء لتاريخنا ، وهاهم أولاء الباحثون الأوربيون قد بدءوا يتولون ذلك بشىء من الأنصاف وحب الحقيقة .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٩ - طبعة بولاق . =

الاتصال الحربى بين الطرفين يدفع ألى تعلم اللغة العربيـة ، فيبدأ الفرنسيون

═ إذيروى أن الأذفونش كتب ألى أبى يوسف يعقوب صاحب المغرب الذى كان قد جاز إلى الأندلس ، رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفجار ، ونصها :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح : أما بعد فأنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولا ذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار ، وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة . وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحـد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ؛ لا تستطيعون دفاعا ، ولا تملـكون امتناعا ، وقد حكى لى عنك ، أنك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ؛ فلا أدرى أ كان الجبن قد أبطأ بك ، أم التكذيب بما وعد ربك . ثم قيل لى إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا ، لعلة لا يجوز لك التقحم معها ، وهأنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفى بالعهود والمواثيق ، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب : النصل الرقيق) ، وترسل إلى جمـلة من عبيدك بالمراكب والشوانى ، والطرائد والمسطحات ؛ وأجوز بجملتى إليك ، فأقا تلك فى أعز الأماكن لديك ؛ فأن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ؛ وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملتين ، والحـكم على البرين ؛ والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الأرادة ، لارب غيره ، ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى » .

وقد سـقت للقارئ الـكتاب كله ليرى فيه شاهدا لقوة صلة أهل ذلك البلاط الأفرنجى بالأسلام ، ومعرفة الـكثير عن عقائده ، ألى جانب ما استشهدنا عليه من مكاتبة الفرنج لجيرانهم المسلمين بالعربية .

بتعلم العربية فى الحـروب الصليبية ، ويدرسونها فى أسبانيا على أهلها (١) . فـكذلك نرى أن المناطق التى امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم « راجع الفصل الأول فقرتا ١ ، ٢ » كان أهلها يتعلمون العربية بحكم هذا الاتصال ؛ أذ كانت تؤخذ منهم الرهائن إلى البـلاد العربية كما تؤخـذ منهم الأسرى ، فيتعلم كل هؤلاء العربية من أهلها ، ويعودون بها ألى بلادهم ، كما يتعلمها من قـد يعتنق الاسلام من أوربي هـذه البلاد ؛ وكذلك يظل يتكلمها ألى حين من يبقى من المسلمين فى أوربا أسيرا أو رقيقا ، أو يتنصر فى بعض تلك المناطق (٢)

وحينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى التى سبقت الأشارة أليها » كان المتعلمون من الأوربيين فى البلاد الأسلامية يتعلمون العربية ؛ كما كان يجيدها المترجمون للعلوم الأسلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم فى الغرب ؛ ومن هنا نسمع منذ عهد مبكر أن رجالا من ذوى الشأن الدينى أو العلمى أو السياسى ، كانوا يعرفون العربية ؛ فمثلا نرى القسيس هرتموت (Hertmot) رئيس دير القـديس جالو بفرنسا فى أواخر القـرن التاسع الميلادى كان يعرف العربية والعبرية (٣) ، والبابا سلفستر الثانى كان يجيـد العربية (٤) ، والفيلسوف الشهير البرت الـكبير كان يعرفها ؛ كما كان يتكلمها ملوك أوربيون كفريدريك الثـانى ، ورجار ملك صقلية ، وغيرهم .

وما نريد أن نحصى متكلمى العـربية من ذوى الشأن فى أوربا ، ملوك ، وعلماء ، ورجال دين ، فهذا ما لاحاجة بنا أليه ولايدلنا به ؛ وإنما نكتفى فى الدلالة على درجة انتشار العربية فى أوربا ، خلال القرون الوسطى ، بما يقوله ، « روجر باكون » فى القرن الثالث عشر : إن الفلسفة مأخـوذة عن العرب فلا تفهم

---

(١) رينو : المصدر السابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(٢) رينو : المصدر نفسه ص ٣٣ من الترجمة العربية .

(٣) رينو : المصدر السابق . ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ .

كما يجب إلا إذا عرفت اللغة التى أخـذت منها (١) ؛ والعـبرية واليونانية لازمتان لفهم الـكـتب المقـدسة ، وفلسفة أرسطو ؛ فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد » .

وكان باكون هذا يلوم الذين درسوا الفلسفة من المترجمات دون الأصول ، لا يستثنى من ذلك اللوم حتى القديس توما الأكوينى نفسه (٢) .

فهذا كاف للقول فى طمأنينة ، بأن اللغة العربية كانت منتشرة فى البيئات المثقفة فى أوربا ، خلال تلك العصور .

***

٥ — وقد قامت فى أوربا حركة مقاومة للأسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الأسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية ؛ فـكان « ريموند لول » ، الذى يحسن اللغة العربيـة ، يجعـل من الدراسات الشرقية أداة حرب صليبية هادئة ، سلاحها روحى خالص ، فيؤسس سـنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان فى ميرامار (Miramar) لدراسة اللغة العربية (٣) . كما أسست أول مدرسة عرفتها أوربا للدراسات الشرقية فى طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٤) ، كما كانت تعلم العبرية وغيرها من مواد تعين على إخراج مبشرين ضد الأسـلام (٥) . ولعله لهذا الغرض من الحرب المعنوية قـد تقرر إيجاد كراسى لدراسة اللغات الشرقية من عربية وغيرها

---

(١) الفريد جيوم : تراث الأسلام ص ٢٤٤ من الأصل ، ص ٢٣٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٣) ايرنست باركر : تراث الأسـلام ص ٦٥ من الأصل ؛ و ١٢٤ — ١٢٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٤) الفرد جيوم : تراث الأسلام ص ٢٧٢ من الأصل ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ ج ١ من الترجمة العربية .

(٥) المصدر السابق نفسه .

فى جامعات ، باريس ، ولوفان ، وسلمنقة ، فى أوائل القـرن الرابع عشر الميلادى (١) .

فهذه الحركات الأيجابية والسلبية فى دراسة اللغة العربيـة ، أعنى تعلمها لا قتباس المعارف الاسلامية ، أو لمحاربة الأسلام والتبشير بالمسيحية ؛ كانت هذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحا للغرب بالشؤون الأسلامية (٢) .

***

٦ — وإذا ما تحدثنا عن اللغة العربية بأوربا لذلك العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الأسلامية ، فانه ليجب أن نذكر لغة أخرى سامية ، هى اللغة العبرية ، التى كانت شقيقة العربية تعاونا ، كما هى شقيقتها نسبا ؛ فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الاسـلامية ، باشتراك اليهود فى الميدان العقلى جنبا ألى جنب مع المسلمين ، حين اطمأنوا فى ظلال تلك الحضارة — ولا سيما فى أسبانيا — ؛ فـكانت لهم فلسفة إسلامية العناصر عربية النصوص ، وإن كتبت حينا باللغة أو الحروف العبرية (٣) .

وقد كان لفلسفة اليهود المـذكورة أثر عظيم على الفلاسفة الغربيين فى العصور الوسطى (٤) . كما أن اليهود قد حفظوا لأوربا الثقافة الأسلامية

---

(١) ايرنست باركر : كتاب تراث الأسلام ص ٦٤ من الأصل ، ج ١ ص ١٢٥ من الترجمة العربية .

(٢) لم أر الأطالة بالاشارة إلى ما كان من صلة قوية للغرب باللغة العربية وآدابها ؛ تلك الصلة التى تركت أثرها فى تطور الفنون الأوربية فى العصور الحديثة مما تجد غير قليل عنه فى فصل « الأدب » من كتاب تراث الاسلام : وكتاب فيكتور هيجو ؛ علم الأدب عند الفرنج والعرب ، للمقدسى وغيرها .

(٣) دائرة المعارف الأسلامية — مادة ابن ميمون — وجورج مور فى كتاب تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٩٨ . من الترجمة الايطالية .

(٤) المصدران السابقان .

بترجمتها ألى العبرية ، وكثيرا ما كانت الترجمة منها ألى اللاتينية (١) ؛ حتى لقد يضيع الأصل العربى بعض الأحيان ، ولا يبقى إلا الترجمة العبرية فقط (٢) ، كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية ألى غير العبرية من اللغات الأوربية كالاسبانية مثلا (٣) .

ولقد نقل اليهود الثقافة الأسلامية نقلا فعليا ألى أوربا ، حين هاجروا من أسبانيا إلى الشمال ، لأسباب سياسية أو احتماعية مختلفة ، ولا سيما هجرتهم الى جنوبى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى (٤) .

وكانت هذه العبرية من اللغات التى شاع تعلمها فى الغرب حينما استيقظت الأفكار ؛ وزعماء رجال الاصلاح كانوا يعرفونها « كهس » ولوثر وغيرهما (٥) .

٢ — الاتصال الفلسفى بين الغرب والأمم الاسلامية

٧ — الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكرى ، دينى وغيردينى ؛ والفلسفة فى تلك العصور الوسطى كانت أشد عناية بالجانب اللاهوتى

(١) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية — مادة فارابى .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية — مادة ابن أبى الرجال .

(٤) تعليق رقم ١ على هامش ص ١٧٤ ج ١ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية .

(٥) نقرأ فى كتاب قصة لوثر المطبوع فى فالته سنة ١٨٤٠ ما نصه « . . . وبناء على ذلك فوض لراهب من الدومينيقيين اسمه « هكستراتن » ، أمر سلطانى بأن يبيد ويحرق جميع ما يطلع عليه ويجده من الكتب العبرانية ؛ وقرر بعض علماء الكلام بمجلس المشورة فى باريس أنه مادام الناس يرخص لهم فى تعلم اللغتين اليونانية والعبرانية ، فلا أمل ببقاء الدين » — ص ١٣ ، ١٤ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

— ميتا فيزيقا — . ونستطيع القول بأن فلسفة تلك العصور الوسطى كانت أسلامية القيادة ؛ فلم يلبث الغربيون بعد ما ذكرنا من اتصالهم بالأسلام ، أن عرفوا ودرسوا فلاسفة الاسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وغيرهم (١) .

ومن المهم أن تلحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين فى أقصى الشرق ؛ فالغزالى المتوفى سنة ١١١١ م قد ترجم فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر – حوالى نصفه (٢) — إلى اللاتنية .

وهكذا ظهر التأثر بهؤلاء الفلاسفة المسلمين فى تفكير المفكرين الغربيين فى أقصى أنحاء أوربا ؛ فكان يوحنا دنس سكوت الاسكتلاندى ، ق ١٣ – ١٤ يستوحى تأثير الارسططالية الأسلامية ، وبخاصة من ابن سينا (٣) ؛ كما يتأثر بابن سينا نفسه فى ألمانيا الفيلسوف ايكهارت (٤) ؛

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم فى باريس ، يعمتد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد (٥) . وألبرت الكبير يتأثر بابن سينا ، حتى ليقول

---

(١) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٥١ و ص ٢٥٤ ، من الأصل ج ١ ص ٢٥٣ و ص ٢٣٩ من الترجمة العربية .

(٢) فيورنتينيو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٠ .

الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٦ من الأصل ، ص ٢٣٩ ج ١ من الترجمة العربية .

(٣) جورج مور : تاريخ الأديان . الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٠

(٤) » » » » » » ج ٢ ص ٣٠٥

واقرأ شيئا عن إيكهارت هذا فى هامش الفصل الثالث بعد

(٥) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٨

رينان ، إنه مدين بكل شيء لابن سينا ؛ كما أن القديس توما الأكويني في إيطاليا مدين كذلك لابن رشد (١) وهو في الوقت نفسه ممن تأثر بالغزالي (٢) .

***

وعلى غرار هـذا أثرت الحركة الاسلامية في مقاومة الفلسفة على مثيلتها في الغرب ، وترك طابع الغزالي العقلي والديني . أثرا على الباحثين النصارى من اللحظة الأولى ، التي أمكن لكتاباته فيها أن تقرأ ؛ ولا يزالون ينحونها دراسة دقيقة (٣) ؛ واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالي على مسائل لاهوتية (٤) .

وكذلك تأثرت الحركة الصوفية في أوربا بعناصر إسلامية (٥) . ولسنا نطيل هنا فنتولى شرح شيء من ذلك في تفصيل ؛ بل حسبنا أن نؤيد دعوى الصلة والتأثر ، متوخين الرجوع الى عبارات العلماء الغربيين ، تمهيدا لما سنشرحه من نقط التأثر الخاصة بموضوع الأصلاح الديني المسيحي فيما يلي ، محددين تلك المسائل هناك .

٣ — معرفة الأوربيين بالعلوم الدينية الاسلامية

٨ — أن ما أسلفناه من أمر انتشار العربية في أوربا ، وأخذ الفلسفة والعلم عن مصادر إسلامية ، ليؤهل في غير شك للاتصال بالمعارف الدينية

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨

(٢) ا . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل . ج ١ ص ٣٠٣ ، من الترجمة العربية .

(٣) ، (٤) ا . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل — ج ١ ص ٣٠١ — ٣٠٢ من الترجمة العربية .

(٥) ج . مور : تاريخ الأديان — ترجمة أيطالية — ج ٢ صفحات ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ — وواضح أننا لا نقصد هنا الى دعوى أن للعرب أو المسلمين =

الأسلامية ، ولا سيما فى تلك الأعصر التى كان الطابع الدينى يسود الحياة فيها ، بل كان أبرز ما يهيمن عليها .

على أنا نملك فـوق ذلك أخبارا عن محاولات إيجابية فى أوربا للاتصال بالمعارف الدينية الأسـلامية ، أتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها إلى الغـرب ، تعريفا له بها ، لأغراض مختلفة .

ففى منتصف القرن الثانى عشر الميـلادى ، ترجم القرآن إلى اللاتينية ، رغبة فى نقده ، ومناقشته ؛ إذ أن بطرس الفينرابلى (Pietro il Venrapili) الذى كان رئيس دير كولونيا بفرنسا منذ سنة ١١٢٢ م قد دعا إلى ذلك ؛ فقام بتلك الترجمة ، روبرت الراتينى (Roberto de Retine) ، وهيرمان الدالماتى (Herman de Dalmatie) ؛ وتمت الترجمة فى سنة ١١٤٣ م ؛ وهى الترجمة التى طبعت فيما بعد ذلك بأربعة قرون فى مدينة بازل « سنة ١٥٤٣ م (١) »

= فلسفة خاصة لها شخصيتها المستقلة أولا ، مما قد يختلف الرأى فيه ، وإنما نقصد إلى بيان الاتصال العقلى والاستفادة مما كان العرب يقومون إذ ذاك على رعايته من علم وفلسفة . لنمهد ببيان هذا الاتصال طريق الانتقال وتسرب الأفـكار من البيئات الاسـلامية ألى البيئات الأصـلاحية ، على ما سنتولاه تفصيلا فيما بعد . وليس هناك من يشاحنا فى هذا القدر حتى أقسى المتطرفين فى إنـكار ما للعرب من فلسفة خاصة ، أو زيادة أكسبوها للمعرفة الأنسانية . فإن لهم على أى فرض تلوينا إسلاميا ، واتجاها فى تطبيق الفاسفة على الأسلام أو التوفيق بينهما ، لن ينكرا عليهما .

(١) مادة قرآن فى دائرة معارف الأديان والأخـلاق .

ولويجى بونيللى فى مقدمة ترجمته الأيطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩ ص ١٥ .

وقـد ذكر الأستاذ ترند فى كتاب تراث الاسـلام . ج ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية — روبرت هذا أحد مترجمى القرآن ، بين من زاروا مدرسة طليطلة ، وسماه « روبرت الانجليزى » (Ropertus Angelicos)

وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن فى الغرب ؛ نذكر أننا نجد خبرا عن ترجمته كذلك الى اليونانية فى وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الأخيرة فى الأصلاح ؛ إذ يروى أن ذلك قد تم فى القرن الرابع عشر الميلادى على يد يوحنا كانتا كوزينى ، الذى كان أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة ، باسم يوحنا السادس ، ثم ترهب ودعى يوسف ؛ ويذكر كذلك أن راهبا يدعى ملاتيوس ، كان مسلما ثم اعتنق الدين المسيحى وترهب ، وقد عاونه فى هذه الترجمة (١) .

بل نجد أن القرآن نفسه لم يكن يعرف فى أوربا بتراجمه غير العربية فقط ، وإنما كان يقرؤه قسيسون بالعربية فى أوربا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ما ورد فى إحدى رسائل القسيس ريكولدو الأيطالى المتوفى سنة ١٣٢٠ م (٢) .

***

٩ — وبين اللاهوتيين المسيحيين فى الشرق والغرب ، رجال عرفوا الأسلام معرفة غير يسيرة الشأن ، ولا ساذجة ، فاطلعوا على معارفه الدينية وناقشوا فيها ، وجادلوا أهلها ؛ فمن هؤلاء فى الشرق مثلا : يوحنا الدمشقى ــ البطريق يحيي — الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى ، هو وأبوه فى قصر الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » وله فى جدل المسلمين أخبار مأثورة ، كما صنف فى ذلك ؛ وهو يعتبر أول منظم لعلم اللاهوت (٣) .

---

(١) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ . وقد أشرنا فى الفصل الأول فقرة ٩ ، إلى خبر هذا الراهب المتنصر ؛ كما ذكرنا فى فقرة ١٠ من هذا الفصل ، خبر مصاهرة السلطان أورخان العثمانى لهذا الأمبراطور .

(٢) هنرى دى كاسترو : الأسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية

(٣) الخورى عيسى أسعد : كتاب الطرفة النقية ص ٢٠٠ — ٢٠١ ج . مور : كتاب تاريخ الأديان : ج ٢ ص ٢٥٧ .

ثم تلميذه «تيودورأبو قرة» — ق ٨ . م أيضا ـ وهو اللاهوتى الضليع ، المتمكن من معرفة اليونانية والعـربية ؛ والذى خلف ثلاثة وأربعين تأليفا عن الأسلام ، واليهودية ، والمذاهب المسيحية (١) .

وغيرهؤلاء كثيرون من رجال الدين العارفين بالأسلام فى الشرق، والمؤلفين فى الشئون الأسلامية . والذين لانشك أنه كان لـكتابتهم أثر فى الـكنيسة الغربية ، لعدم انقطاع الصلة بين الـكنيستين فى ذلك العهد ما على أشرنا أليه سابقا .

على أنا لا نطيل الحديث عن هؤلاء الشرقيين ؛ بل نعود الى الغرب نفسه ، فنرى أن بطرس الفينرابلى الداعى ألى ترجمة القرآن اللاتينية ، يزور اسبانيا سنة ١١٤١ ، فيدرس هناك أصول النظريات الاسلامية الدينية ، ويكتب بحثا فى نقد اليهودية والأسلام (٢) .

ولقد أشرنا قبل الآن ـ الفصل الأول فقرة ١١ ـ ألى ما كان من الرغبة المضطرمة لريموند لول فى تبشير المسلمين بالمسيحية ؛ فـكان له من المعرفة بالعربية واللاهوت الأسلامى حظ عظيم ، ولا ينكر الباحثون الغربيون صلته بالمصادر الأسلامية وأثرها فيما ترك من مؤلفاته ، ولا يخامرهم شك فى اقتباسه قسما عظيما من لاهوته عن العرب ، كما تنم عن ذلك رسالته عن أسماء الله المائة (٣) .

و«لول» هذا هو الذى أشرنا سابقا ـ فصل (٢) فقره (٥) ـ ألى استعماله اللغـة العربية والمعارف الاسلامية أداة لحـرب صليبية معنوية ، وأنه أسس لذلك فى القرن الثالث عشر مدرسة تبشيرية ، تخرج رجالا يحسنون ذلك الـكفاح ضد الاسلام ، كما أشرنا هناك ألى مدرسة المبشرين فى طليطلة لهذا

---

(١) الخورى عيسى : المصدر السابق — ص ٢٠١ .

(٢) مادة (Pierre le Veneraple) من دائرة المعارف الفرنسية ج ٢٦ (Le Grand Encicl . .) .

(٣) ا . جيوم : تراث الأسـلام ص ٢٧١ من الأصل . ج ١ ص ٣٠٠ من الترجمة العربية .

الغرض عينه ؛ ونقول هنا ، إنه كان من المتخرجين فى تلك المدرسة « ريموند مارتن » – ق ١٣ – . وكانت له معرفة بمؤلفى العرب ، ربما كانت منقطعة النظير فى أوربا بأسرها ، حتى فى العصور الحديثة ؛ ولم يكن يعرف القرآن وسنة الرسول فحسب ؛ بل كان يعرف كذلك كبار العلماء من رجال الدين المسلمين ، وعظماء فلاسفة الأسلام » (١) .

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الدينى فى الاسلام ، والأبحاث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ؛ ظواهر تجعل الاتصال بين الدينين وثيقا قويا .

***

١٠ — ومع ما رأيناه من اطلاع الغرب على الدراسة الدينية الإسلامية ، نقف هنا وقفة خاصة ، لنشير إلى عالم أندلسى كبير الخطر ، مؤثرين أن نلفت النظر أولا إلى ما يلحظه الباحثون الغربيون ، من أن أسبانيا الإسلامية كانت مرآة صافية يتجلى فيها شتيت المذاهب الإسلامية ، كما كانت أداة هامة فى نقل تأثير العرب إلى الغرب (٢) .

وذلك العالم الذى نبتغى الإشارة إليه هو : أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى ؛ المؤيد القوى للفكرة الظاهرية بالأندلس ، والذى تعتبر الناحية المبتكرة فيه ، هى تطبيق أصول هذه الفكرة على العقائد ، فلا يأخذ فيها إلا بالمعنى الظاهرى للقرآن والأحاديث الموثوق بها ؛ وعلى هذا الأساس من البحث ، نقد الفرق الإسلامية نقدا شديدا ؛ كما كان يمثل أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوسل بالأولياء ، ومذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل – ج ١ ص ٣٠١ من الترجمة العربية .

(٢) راجع فى هذا صفحات ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٧١ من ج ١ : تراث الإسلام الترجمة العربية .

(٣) أرندنك C . Van - Arendonac كاتب مادة « ابن حزم » فى دائرة المعارف الإسلامية ص ١٣٩ — ١٤٠ من المجلد الأول من الترجمة العربية .

هـذا العالم ذو الآثار الكثيرة ، والآراء القوية ، والشخصية الواضحة ، لا أجد عنتاً فى القول بأن الغرب المتصل باللغة العربية ، والدراسات الاسلامية ، — وبخاصة فى أسبانيا — قد عرفه واتصل بآثاره .

ولئن كنت لا أجـد الشاهد النصى على هـذا ، فإنى أسوق لتأييد استنتاجى الاعتبارات الآتية :

١ — أنه عاش فى أسبانيا ، حيث كان الاتصال قويا جدا ، بين الغرب والآثار الاسلامية (١) . على ماقدمنا من بيان .

٢ — انه أحرز حظا عظيما من الشهرة ؛ وكانت له آثار قيمة ، كما كانت حياته مثار مقاومة عنيفة ، واضطهاد شديد ؛ فمثله ليس بالمغمور ، ولا بالمجهول .

٣ — بقاء أفكاره وآرائه ، واستمرار الخلاف حولها ألى ما بعد وفاته بنحو قرن تقريبا (٢) ، فذلك خليق بلفت النظر أليه .

٤ — مقاومته العنيفة لليهودية والنصرانية على اختلاف مذاهبهما ، وكثرة مناقشته ورده على مواضع اختلافهما مع الأسلام ، وإظهار مواطن الأخذ والرد فيهما .

فمثل بطرس الفينرابلى (٣) وهو رئيس دير ، إذا مازار أسبانيا بعد وفاة ابن حزم ببضعة وسبعين عاما ، على ما نقلنا آنفا من خبر ذلك (٤) ، وعرف

---

(١) تقرأ فى كتاب تراث الاسلام — ج ١ ص ٥٤ — من الترجمة العربية ما نصه : « وقد استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة فى أسبانيا فى القرن العاشر . فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ، ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت شيئاً فشيئاً ، مركز الثقافة الأسلامية فى القرن الحادى عشر ، بعد أن خرب البربر قرطبة فى أوائل هذا القرن ، وبقى لها هـذا المقام بعد الغزو المسيحى سنة ١٠٨٥ ... الخ » ؛ وابن حزم من أهل القرن الحادى عشر الميلادى — توفى سنة ١٠٦٤ م —

(٢) ارندنك : المصدر السابق ص ١٤٣ من الترجمة العربية .

(٣ ، ٤) انظر الفصل الثانى فقرة ٨ .

هناك النظريات الدينية الأسلامية معرفة نقدية ، يكتب صاحبها بحثا فى نقد الاسلام واليهودية ، لا يكون من اليسير أن يجهل ابن حزم وآثاره ، بعد الذى قدمنا من ملاحظات .

ولسنا نذكر « بطرس » هذا إلا على سبيل المثال ، فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على أسبانيا ؛ واتصلوا بالنظم الاسلامية كما هو معروف ، فلا علينا إذا ما رجحنا أن ابن حزم قد عرف فى الغرب ، وعرفت آراؤه الخاصة ، التى أشرنا اليها آنفا ؛ وسنشير إليها فيما بعد ، عند تناول مبادئ الاصلاح المسيحى تفصيلا .

نرجح معرفة الغربيين لابن حزم ؛ فهم الذين عرفوا من فى المشرق البعيد ، سريعا وجيدا ، كالغزالى وغيره على ما بيناه من قبل .

***

١١ — ولعل من خير ما نتم به إعداد ذهن القارئ للحديث التفصيلى عن تأثر مصلحى المسيحية بالأسلام ، أن نلفت النظر ألى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ، ودينيهما ، فى البيئة الألمانية بخاصة ، أذ هى التى كانت ميدان معارك الأصلاح العملى للمسيحية ، فى دوره التنفيذى .

ففى حركة نقل العلم الأسلامى إلى أوربا ، قد رأينا أن ناصرها الأكبر ، إنما هو الأمبراطور الملحد ، فردريك الثانى هوهنشتاوفن الألمانى ، الذى يعرف تاريخ الكنيسة أثر صراعه وصراع أسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من أضرار .

وميول هذا الأمبراطور ، الشرقية العربية ، بل الأسلامية ، كانت مثلا غريبا فى أوربا ، فى العصور الوسطى ، بل فى هذه العصور الحديثة أيضا ؛ فلقد آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، وظهر التأثير العربى فى تربيته وفى ميوله الشخصية والطبيعية ، وفى علاقاته بالعالم الثقافى الشرقى ، ولعظم

التأثير العربى عليه ، كان يلقب «السلطان المعمّد» (١) . ومنذ أعوامه الأولى كان يحيا على أسلوب عربى ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ من عهد زواجه الأول مقاصير للسيدات — يسميها الكتاب الغربيون حريما (٢) — وعلاقاته الودية مع الشرق ، ولا سيما مصر ، وتونس ؛ مما يلذ تتبع بحثه ، ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق فى أوربا ، خلال العصور الوسطى .

ثم نرى أن والدة ألفونس الحكيم الذى هو ضريع فريدريك الكبير فى هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ؛ والذى عمل بجد على نقل الثقافة الاسلامية الى أوربا ، نرى أن والدة ألفونس هذا إنما هى أميرة — سفيفيا — المقاطعة الباڤارية (٣) ، التى منها فردريك الثانى وأسرته .

كما نرى أن الفيلسوف الشهير ألبرت الكبير (٤) يمت بصلة واضحة إلى فردريك الثانى أيضا ، وليس الفيلسوف إلا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه .

وكذلك نجد أن القديس توما الأكوينى ، الفيلسوف اللاهوتى (٥) ، إنما هو ابن أحد أقارب أسرة هذا الامبراطور — هوهنشتاوفن — أيضا . وكلا

(١ ، ٢) رافاييل مورجن (Raffaello Morghen) أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة روما — فى مادة فردريك الثانى هوهنشتاوفن . دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٣) مادة ألفونس الحكيم فى دائرة المعارف الايطالية .

(٤) ألبير الكبير « ١٢٠٥ — ١٢٨٠ م » فيلسوف مدرسى وراهب دومينيكانى ، واسع الاطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربرت سلفستر تلميذ العرب ؛ وقد قدمنا أنه كان يعرف العربية .

(٥) القديس توما « ١٢٢٥ — ١٢٧٤ م » أشهر تلامذة ألبرت الكبير ، ونسبته « الأكوينى » الى أكوينو ضاحية نابلى ، وهو راهب دومينيكانى أيضا ؛ منحه البابا لقب قديس ؛ ولقبه بابا آخر بعد ذلك « بالمعلم الملائكى » .

الفيلسوفين قد أصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها — أنظر فصل ٢ فقرة ٧ — .

ومن كل هـذه الشواهد نقدر صلة البيئة الألمانية ، بالثقافة الاسلامية والمؤثرات الاسلامية ؛ ونرى أثر تلك البيئة يظهر فى قشتالة ، بأقصى الغرب الجنوبى فى أوربا ، كما يظهر فى إيطاليا جنوبا .

على أنا نرى فى القرن التالى لما سبق — أى القرن الرابع عشر الميلادى — أن بافاريا هذه نفسها ، هى المعقل لحماية أعـداء السلطة الـكنسية ، الذين هم من أنصار الفلسفة الرشدية ، وأحرار الرهبان الفرنشيسكانيين ، إذ يحمى بلاط لويس ملـكها مثل : مارسيليودى بادوفا الرشدى الشهير ، وعدو الـكنيسة كما يحمى « أوكام » الفيلسوف الفرنشيسكانى — الذى سنرى علاقته الفكرية بلوثر — وأوكام هـذا هو الذى قال للامبراطور كلمته التاريخية الشهيرة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (١) .

وفى هذه البيئة الألمانية قد رأينا التأثير الاسلامى يصل الى «أيكهارت» — أنظر فصل ٢ فقرة ٧ — وسنرى فى الفصل التالى ، كيف يظهر هذا التأثر فى جماعة « إخوة وأخوات الفكر الحر » فى ألمانيا العليا ، وفى سويسرا ، كما سنرى أثر « ايكهارت » المباشر فى آراء الاصلاح البروتستانتى .

من كل هذا يتجلى للقارئ التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ؛ وأنه كان واضحا قويا فى البيئة الجرمانية — أى الميدان الأخير للاصلاح — .

***

١٢ — إلى هنا قد بينا مظاهر الاتصال المادى ، والاتصال المعنوى ، عقليا ، واعتقاديا ، بين الأسـلام ، والمسيحية فى الغرب ، بيانا يحق لنا بعده أن نقول : إننا قد دللنا به على الطريق الناهج السوىّ لانتقال ما انتقل من أفـكار وآراء ؛ حتى ليحق لنا بعد هذه المقدمات أن نتصدى لبيان النتائج .

---

(١) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٨ .

الفصل الثالث

من نتائج الاتصال

١ — نتقدم مطمئنين بعد الذى أبنا من طرق الانتقال ، ونواحى التأثر ، وعوامل التأثير ؛ فنشرح ماترتب على هذا كله من نتائج عامة فى الحياة الدينية ، والعقلية الأوربية ، من حيث مظهرها فى تدين أهلها ، وفهمهم للدين ؟ ثم ما ترتب على هذا كله من نتائج خاصة فى الاصلاح المسيحى نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا إليه من أفكار ؛ وناضلوا فى سبيله من مبادئ ، عساهم قد تأثروا فيها بالاسلام .

نريد أن نبين ما تأثرت به — بصفة عامة — الحياة العقلية ، والحياة الاعتقادية ، والعلاقة بين المسيحى والكنيسة الكاثوليكية وما إلى ذلك ، خلال القرون الوسطى ، إذ الصلة بالشرق والأسلام وثيقة .

كما نبين ما تأثرت به — بخاصة — حركة الاصلاح المسيحى نفسها ، تلك الحركة التى عملت فيها أجيال متعددة ، وطبقات من الناس ، منذ القرن الثانى عشر الميلادى إلى القرن السادس عشر (١) .

على أنا حين نفسر هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر

---

(١) ليس بدعا من الرأى التاريخى ، أن ننظر إلى أصول الاصلاح البروتستانتى هذا النظر البعيد ، بل هو الذى تتطلبه الدقة التاريخية ، وتؤيده السنن الاجتماعية ؛ على أن الكتاب عن تاريخ المسيحية قد صرحوا بهذا حتى جعلوا الاصلاح إصلاحين : الأول والثانى . ومن هؤلاء «ايرنستو بونايونى» فى كتابه «معالم تاريخ المسيحية « Pietre Miliari nella storia del Cristianesimo وهو الحلقة الثامنة من مجموعة « مسائل اليوم » (Problemi d'oggi) عقد الكاتب المذكور فى كتابه هذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصلاح =

ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها ، قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها إلى النواحى العقلية والدينية ، التى قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامى .

فمقصدنا العلمى ، إنما هو إلقاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينيين — المسيحية والاسلام — ببيان هذا الاتصال وأثره ، تاركين ماعدا ذلك من مؤثرات أخرى سببت ظهور الاصلاح الدينى وتمامه ؛ لأننا لا نؤرخ الأصلاح تاريخا شاملا ، وأنما نقصد إلى بيان هذا العنصر من أسبابه فحسب .

(١) الآثار العامة

٢ — كانت مظاهر هذا التأثير العامة فى حياة المسيحية بالغرب هى :

(أولا) الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة ؛

ولعل هذا الغض من السلطة الكنسية قد بدأ منذ وقت مبكر فى الشرق ،

= الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثانى (la Prima - la seconde Riforma)
وبدأ الأول بالحديث عن الفالدية فى القرن الثانى عشر الميلادى . ومن أجل ذلك لا أجد تكلفا فى التفسير التاريخى الذى سرت عليه هنا فى فهم أصلاح المسيحية . ولا أظن أن فى هذا الاتجاه تحيزا ما . وليس يؤثر فى صحة هذا النظر التاريخى أن تعد طلائع الاصلاح الأولى ؛ وبوادره القديمة إلحادا وزيغا ، عند الكتاب الكنسيين فى تاريخ المسيحية ، فأن البحث العلمى لايجزع من مثل هذا ، ولا يتأثر به ، ومثله مما تختلف فيه النظرة الدينية الصرفة عن النظرة العلمية فى كل دين ، وأن تاريخ الأديان ليعرف المثل الكثيرة ، على أن ما عد كفرا بالأمس ، هو هو ماصار دينا فى الغد .

بسبب انتشار الاسـلام ؛ إذ دخلت فى حمايته كنائس شرقية تمتعت بتساهل المسلمين، فوجدت الفرصة لترويج آرائها الدينية، التى كانت تحتسب عند الكنيسة المحافظة بدعا ، فثغرت بذلك قوة الكنيسة ، وأضعفت تماسكها (١) .

ثم كانت الحروب الصليبية ، التى أن أثارتها حمية قوية ، فقد كانت نتيجتها بعد أن اتصل الشرق بالغرب ، اتصالا قويا ، أن خمدت تلك الحمية ، وفترت حدتها ، فلم ينته القرن الثانى عشر ، ويبدأ القرن الثالث عشر حتى همد ذلك الحماس ، ولم يعد يحرك القلوب الأوربية ؛ فوقف تدفقهم على الشرق بالكثرة الأولى ؛ وتغـير نظرهم للمسلمين وتقديرهم لهم ؛ حتى انتهى الأمر أخيرا الى تحديد سلطة الأفكار الدينية المطلقة على عقولهم (٢) والأقلال من سيطرتها على أفئدتهم .

***

٣ — ثانيا : تحرير العقل ؛ وقـد كان هـذا التحرير الخطوة الأولى ، والسبب الفعال لما أشرنا أليه من تحديد السلطة الكنسية .

تم هذا التحرير بتأثير عوامل مختلفة ؛ كهذه المعارف العلمية المتنوعة التى اتصل بها الغربيون ، وكان للشرق فضل الهداية إليها ؛ وكالحركة الفلسفية التى ذكرنا علاقة الغرب فيها بالشرق ؛ والفلسفة دائما تعطى العقل قوة الشعور بنفسه ، والأحساس بوجوده

ولقد مرت الفلسفة بأدوار مختلفة فى علاقتها بالدين من مخالفة ، وتوفيق وغير ذلك حتى كان مصيرها التحرر التام من سيطرته (٣) .

---

(١) الى هـذا المعنى يتنبه مؤرخو الأديان من الغربيين ؛ راجـع تاريخ الأديان لمور فى ترجمته الايطالية ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) جيزو . تاريخ الحضارة . السابق ذكره . ص ٢٦١ ، ٢٦٤ من الترجمة العربية .

(٣) يلاحظ مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة المدرسية ، قد كان مصيرها هو مصير الحروب الصليبية ؛ فكما بدأت هذه الحروب بالرغبة فى تخليص قبر =

وإذا ذكرنا الفلسفة وعملها فى تحرير العقل ، فمما يمس موضوعنا أقوى المساس تلك الملاحظة التى يذكرها رينان فى دراسته لفلسفة ابن رشد ، وهى :

« أن الرهبان الفرنشيسكانيين كانوا أنصارا أقوياء للفلسفة الاسلامية ، ومبادئ ابن رشد فى أوربا (١) . إذ نذكر أن هؤلاء الفرنشيسكان كانوا بحريتهم العقلية من أقوى المقاومين للسلطة الكنسية ، كما سنرى الأمثلة الكثيرة لذلك فيما يلى ، حتى لنستطيع أن نقول فى طمأنينة ، إن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، فى القرون الوسطى ، كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الأسلامية مباشرة ، أو بالواسطة ، كما يشهد بذلك تاريخ حياة الفلسفة الرشدية فى أوربا .

***

٤ — وحين نتكلم عن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، نستطيع أن نجد الصلة غير الخفية بين حركات التجديد فى حياة الكنيسة ، أو حركات

= المسيح من يد الكفار ، فانتهت إلى خلق التجارة الواسعة ، وتنمية الرفاهية الأنسانية ؛ هكذا أخذت الفلسفة المدرسية فى حماية العقيدة على يد « ألبرت الكبير » « وتوماس الأكوينى » ؛ فانتهت بأحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها .

راجع فيور ينتينو فى خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٧ ، فقرة ١٢٢ بتصرف يسير .

(١) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ص ٧٣ . وحين نسوق هذه الأشارة لا ننسى عداوة مثل « ريموندلل » للفلسفة الرشدية ، لقوة تعصبه ودعوته إلى إنشاء جمعية عسكرية كبرى للسعى إلى إسقاط الاسلام ، ولكنه مع ذلك ، كان واسع الأفق . جعل معرفة الاسلام والعربية عدته فى رغباته التعصبية ضد الاسلام ، الذى طاف أوربا ، محرضا الملوك والباباوات فيها على حرب صليبية ضده ، ولعلنا نشهد اليوم هذه الظاهرة فى استعانة الشرق بمعارف الغرب حين يكافحه وللحياة نواميس وسنن مطردة .

الخروج على الكنيسه ، وبين المؤثرات الاسلامية — من ثقافية وغيرها — إذ كانت هذه الحركات الدينية صدى التقدم العقلى ، واليقظة الروحية ، التى رأينا علاقتها فى الغرب ، بالمؤثرات الأسلامية .

ففى الماضى غير القريب ، نرى الفرقة الفالدية (١) فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر ، تلك الفرقة التى كان ظهورها من الحركات القديمة ضد الكنيسة وحالها الفاسدة ؛ فانتظمت مبادئها عناصر هامة ، مما قرره أخيرا الاصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر (٢) .

ومما يلفت نظر الباحث فى حال هذه الطائفة أنها نشأت فى جنوب فرنسا حيث امتد نفوذ الاسلام السياسى والروحى ؛ بل حيث توطن المسلمون فعلا — أزمنة غير قليلة — على مابيناه فى « الفصل الأول » — وحيث عرف الفرنسيون الأسلام ، أو اعتنقه أشخاص منهم ؛ ثم حيث تجاور هذه المنطقة أسبانيا الاسلامية ، أقوى مصادر التأثير الاسلامى على أوربا ؛ وحيث كان يهاجر اليهود من أسبانيا حاملين آثار الثقافة الأسلامية — على ما أشرنا اليه كذلك فى الفصل الثانى .

---

(١) نسبة إلى « بطرس فالدو » ، الذى كان تاجرا فى ليون ؛ وقرر أن الكنيسة الرومانية حائدة عن الأنجيل ، وتجب إعادتها الى أصوله ، فتصدى لذلك . ومن آراء هذه الطائفة : وجوب التعويل على الكتاب المقدس ؛ وأن الكتاب يتضمن كل ما يكفى للنجاة ؛ وأنه لا مقتضى للاستغاثة بالقديسين والاستشفاع بهم فى نوال النجاة ؛ كما يرون أن رياسة البابا يجب هدمها .. الخ

وإذا كان الكتاب الدينيون ينعتون هذه الشيعة بالمروق فأن من المؤرخين من يقول : أنه لو اعتمد البابا وات هذه الطائفة كما اعتمدوا رهبنة الفرنشيسكانيين مثلا ، لكان « فالدو » يعد اليوم من القديسين ، بدل أن يحسب فى المبتدعين . وقد أسلفنا القول فى أن مايعد بالأمس مروقا ، يصبح فى الغد إصلاحا .

(٢) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

أفليس ذلك كله مما تسهل معه ملاحظة أثر هذه الظروف المادية والمعنوية فى تفكير طائفة الفالديين هذه، وحياتها؟ ولو أنى لا أحب المضى هنا فى وصف هذا الأثر وتحديده، مكتفيا بالأشارة الى الآثار العامة، والصلة غير الضعيفة بين الحركات الكنسية والبيئة الاسلامية.

***

وبين حركات التجديد التى أقرتها الكنيسة، نرى الرهبانيتين العظيمتى الشأن فى القرون الوسطى، وهما الرهبانية الفرنشيسكانية، والرهبانية الدومينيكانية. تنسب أولاهما إلى «فرنشيسكو الأسيسى». الذى حدثناك عن رحلته إلى الشرق، ولقائه الملك الكامل، يحاول تبشيره بالنصرانية ـ فصل ١ فقرة ١١ — ، فقد كان لرحلته ألى الشرق أثرها فى تأسيس تلك الرهبانية، وبتجاربه فى التبشير بسوريا والمغرب، رجع يكرس نفسه لإعادة المسيحيين فى أوربا الى الحياة المسيحية الحقيقية (١).

وتنسب الرهبانية الثانية ألى «دومينيكوس» الراهب الأسبانى، مخترع مايسمى فى الكنيسة «بالفحص الشريف»؛ الذى عرف فى التاريخ باسم ديوان التفتيش، وقد كان أول ماقام منه فى مدينة طليطلة سنة ١٢١٦ م؛

وليس من الدقة أن نغض النظر عن أسبانية هذا الراهب؛ أو عما ظهر فى هذه الرهبانية ورجالها من ميل مبكر ألى العلم، وحسبانهم حسابا كبيرا للمعرفة والدرس (٢) فلاسبانيته بلا شك أثر فى هذا كله.

على أنه قد ظهر من الرهبانيتين كثير من المفكرين والفلاسفة الذين ذكرنا آنفا، صلتهم بالبيئة الأسلامية مثل: ألبرت الكبير؛ والقديس توما الأكوينى من الدومينيكانيين؛ والاسكندر الهاليسى؛ وروجر بيكون؛ ودنس سكوت، من الفرنشيسكانيين، وغير هؤلاء وأولئك.

---

(١) ج. مور: تاريخ الأديان ج ٣ ص ٣٠٩. ترجمة ايطالية.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١١.

وقد ذكرنا قريبا ملاحظة « رينان » عن علاقة الفرنشيسكان بالفلسفة الاسلامية وتأثرهم بها .

***

ثم فيما بعد ذلك نرى فرقة مسيحية متطرفة فى التسامح ، كانت تقول بوحدة الوجود ، تلك هى فرقة « إخوة وأخوات الفكر الحر (Fratelli e sorelle del libero Sperito) التى ظهرت فى ألمانيا (١) العليا ، وسويسرا وتبدو لها علاقة بمبادئ الفيلسوف « أما لريكو دى بينا » الذى استقى آراءه من التيار الأفلاطونى الحديث فى الفلسفة الاسلامية (٢) .

وهذه الطائفة إلى جانب صوفيتها التى ذكرناها ، كانت تنفى كل ألوهية خاصة للمسيح ، إلى غير ذلك من آراء تسامحية حرة .

وهكذا نجد مظاهر الاتصال بين الحركات الكنسية والثقافة الأسلامية ، بما لا نطيل فيه أكثر من ذلك ، مطمئنين إلى أن الأثر العام لهذا الاتصال الذى قدمنا بيانه ليس خافيا ، بل هو من البيان بحيث يعد نفس القارئ المنصف للقول بالتأثير الأسلامى الخاص .

---

(١) هذا ما أشرنا اليه فى فصل ٢ فقرة ١١ ؛ عند الكلام عن صلة البيئة الألمانية خاصة بالثقافة الأسلامية .

(٢) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ — ودى بينا هذا فيلسوف مدرسى كان أستاذا للاهوت توفى سنة ١٢٠٦م . وقد كفرته الكنيسة وبددت جثته .

الآثار الخاصة

﴿ فى مبادىء الاصلاح البروتستانتى نفسها ﴾

٥ — إذا قيل إن خصائص الحضارة الأسلامية ، والدين الأسلامى ، قد تسربت خلسة تقريبا إلى العالم اللاتينى (١) .

ثم إذا ما قيل أن الأدلة كافية فى تبيان مجرى النظر الفلسفى والدينى ، أثناء انتقاله من الشرق إلى الغرب (٢) .

إذا ما قيل هذا وذاك من باحثين غربيين ؛ فإنا نقول بعد الذى بيناه : إن مسالك هذا التسرب ، ومظاهر هذا الانتقال قد صارت معروفة جلية ، وإننا نتقدم مطمئنين ، لنبين وصولها إلى أهم أصول الاصلاح المسيحى الذى خلّف المذهب البروتستانتى . وإليك البيان :

١ — أهم أصول الاصلاح ، والطابع العام له فى جميع الأقاليم ، هو : رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة فى البابا ، أم فى المجامع (٣)

وهذه الفكرة الاصلاحية قد ظهرت منذ الاصلاح الأول ، على يد الفالديين ، فى القرن الثانى عشر ، وقد استرعينا نظر القارىء – فى فصل ٣ فقرة ٣ — ليقدر أثر البيئة المادية والمعنوية التى نشئوا فيها جنوبى فرنسا ، وما يمكن أن تتأثر به من الاسلام .

بل نرى فى عصر أقدم من عصر الفالديين بقرون ، أن « جربرت دوفرن » وهو « البابا سلفستر الثانى » الوثيق الصلة بالثقافة الاسلامية ، والبيئة الاسلامية فى أسبانيا — وأن أمكن الشك فى رحلته إليها — جربرت هذا قد ثار ضد السلطة الكنسية ، وهو يعد أعظم من كتب ضد الأساقفة (٤) .

---

(١) جويدودى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٧

(٢) ا . جيوم : تراث الاسلام ج ١ ص ٣١٨ من الترجمة العربية .

(٣) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية فى تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

ثم نجد وراء ذلك أن النقد الاسلامى لهذه السلطة الكنسية قوى شائع ، حتى ليتمثل فى أناشيد العصور الوسطى ، ويتغنى به ؛ فصلاح الدين الذى يذكر فى الأناشيد الفرنسية واللاتينية لذلك العصر ، نراه فى إحدى الروايات يناقش فى الديانات ؛ وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عبادة البابا ، ومسألة الاعتراف (١) .

وفى الحق إنه يلاحظ أن فكرة بيع الغفران ، القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ، ليباع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولا مشهورة ، ونصوصا صريحة فى آيات القرآن ، التى كانت مترجمة إلى اللاتينية واليونانية قبل الأصلاح بقرون (٢) ، والتى اتصل بها ولا بد فى هاتين

---

(١) هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٤٥ من الترجمة العربية . ولقد كتب طبيب الملك فيليب أوغوست - ق ١٢ ، ١٣ - هجاء مؤلما للقسيسين سماه « الطب المقدس » . والفالديون الذين أشرنا الى صلتهم بالثقافة والبيئة الاسلامية ، كانوا فى القرن الثانى عشر يسمون البابا « ضد المسيح » ، ويسمون الكنيسة الرومانية « بابل » .

(٢) ولئن كان القرآن يترجم فى تلك العصور للرغبة فى نقضه أو الرد عليه ، فأنا لاننسى أن هذا الاتصال السلبى العنادى ، له أثره فى تطرق الأفكار الى المعاند ، وتأثره بها لما نعرفه من وقع الفكر والآراء على الأعصاب ، وتركها آثارها فيها ، وانفعال النفس بها ، ولو بدأت صلتها بها فى هذه الصورة من المقاومة والمعارضة . وتقدير هذا مما يجده الأنسان فى خاصة نفسه ويشهده فى انتقال الآراء ونواميس تفاعلها لو دقق النظر .

والآيات المناهضة لفكرة بيع التوبة ، وكنوز الصالحين كثيرة فى القرآن منها : ما فى (سورة فاطر ٣٥ - آية ١١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ، إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » . وما فى سورة المدثر (٧٤) آية ٣١ : « كل نفس بما كسبت =

اللغتين غير قليلين من مثقفى تلك العصور ، الذين رأينا قوة ما يمتون به من الأسباب إلى الثقافة الأسلامية العلمية ، والدينية .

ومن الناحية الفلسفية تجد الفكرة التى ترفض السلطة الكنسية فى فلسفات كثيرة ـ من تلك التى كشفنا عن وثيق صلتها بالفلسفة الاسلامية — وهنا نريد أن نذكر منها فلسفات متأخرة قاربت عهد إنجاز الاصلاح المسيحى ، وأثرت فيه تأثيرا مباشرا ، وتلك هى فلسفة أوكام (Occam) وأتباعه مثل : ج . بيل (G. Biel) ود . أيلى (D. Ailly) لقوة اتصال لوثر

=رهينة» . وما فى سورة ٢ ـ البقرة ـ آية ٢٨١ : «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . وسورة ٣١ لقمان . آية ٣٣ : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ... » إلى غير ذلك من آيات فى هذا المعنى ، كانت بين يدى الأوربيين العارفين باللاتينية واليونانية . بل قد سمعنا أن فقرات من القرآن كانت تقرأ فى أوربا بالعربية نفسها ؛ هذا إلى شروح إسلامية لهذه الفكرة عرفنا أنها وصلت إلى المسيحيين ، وكانت فى مناالهم ، حينما كانت الكنيسة تسرف فى بيع صكوك الغفران ، واستغلال فكرتها فى ذلك تأييداً لسلطتها .

وحين نسوق الشواهد على مبدأ «أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت» ، ذلك المبدأ الذى لم يجنح القرآن إلى غيره ، يحسن أن نقول : إن العهد القديم مثلا لم يؤيد هذا المبدأ ذلك التأييد المطلق إذ ورد فى التوراة المنسوبة الى موسى ، فى سفر التثنية : إصحاح : ٥ آية ٩ : ضد هذا المبدأ حين تقول : « لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى »؛ وفى سفر حزقيال من أسفار الأنبياء ـ بعد موسى ـ إصحاح : ١٨ ، آية ٢٠ ، تأييد هذا المبدأ « النفس التى تخطىء هى تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » .

فتأييد الفكرة الأولى دون الثانية يحتاج إلى مرجح ؛ هو الاسلام على ما يبدو لى فى غير تكلف .

بتلك الفلسفة ، إذ كان أساتذته فى الجامعة أوكاميين (١) . وكان لوثر نفسه متأثرا بهذه الفلسفة ؛ إذ نراه حينما وقع فى أزمته الروحية الدينية ، يقرأ كتب « أوكام » وأتباعه السابقين (٢) .

وأوكام هذا كان — كما قلنا سابقاً — من الفرنشيسكانيين ، الذين ذكرنا ملاحظة رينان فى أنهم من أقوى أنصار الفلسفة الرشدية بأوربا ، ومن ألد أعداء الكنيسة وسلطتها ؛ و « أوكام » هذا هو الذى قلنا إنه احتمى بلويس ملك بافاريا ، مع مارسيليو دى بادوفا ، وقال له أوكام كلمته المشهورة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (فصل : ٢ — فقرة : ١١) .

وتلك الصلة القريبة بالفلسفة الاسلامية تكفى أجمالا ؛ لكننا نجد فى القسم السياسى من الفلسفة الرشدية ، أن فيلسوف قرطبة حين يعد حكومة الخلفاء الراشدين أفضل أنواع الحكومة ، يعتبر أن شر الظلم ظلم رجال الدين ، فيفضل من حكومة الخلفاء الراشدين ، تلك الحكومة التى لا تعتد لنفسها شيئا من السلطان الدينى على الأشخاص ، ولا تحتفظ بشىء من الامتياز ، أو الوساطة أو الفضل لهؤلاء الخلفاء ؛ وينقم على ظلم رجال الدين معتبرا إياه شر الظلم (٣)

(١ ، ٢) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨ — دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة لوثر .

(٣) يتصل بهذه الفكرة الإصلاحية فى نبذ السلطة الدينية فكرة المصلحين ، فى عدجميع المسيحيين قسسا ، لهم حق الظهور بين يدى الله ، والصلاة للاخرين — مور : تاريخ الأديان ج ٢ — ص ٣٥٠ —

وهذه الفكرة فى استخلاص الدين من رجال الكنيسة ورده الى العوام ، وجعله حقا لكل أحد لا حكر فيه لفرد أو طائفة ؛ هذه الفكرة ليست إلا صدى الأثر العام للاتصال بالاسلام شرقا وغربا ، ذلك الأثر الذى وصفناه فى الفصل الثالث . فقرة ٢ ، ٣ ؛ ثم هى النتيجة المباشرة لإطراح سلطة =

وهكذا نرى أن أنكار السلطة الشخصية الفردية فى الدين ، وعدم الاعتراف لأحد بها ، من الخصائص الأسلامية ، التى تسربت ألى أوربا على لسان المسلمين ، وفى تعليم دينهم ، وعمل خلفائهم الأولين ، بعد ما ترجم من عبارات قرآنهم وفيما انتقل من فلسفتهم ؛ وفى تحريرها للعقول ؛ ألى آخر مابيناه فى هذه الفقرة ، وكشفنا به عن مسالك ذلك التسرب ، واضحة قوية الاتصال .

٦ — الفكرة الثانية من أصول الاصلاح : — أنه يكفى للنجاة تصحيح العقيدة ، فالنجاة منحة من الله ، يتلقاها كل إنسان من ربه رأسا بواسطة العقيدة دون العمل التوسطى للكنيسة فى ذلك ، إذ لاوساطة للكنيسة بين الله والناس (لوثر)(١) .

وهذه الفكرة تتضح بأيسر التأمل صلتها بالفلسفة ، وما يتحدث من مذاهبها عن الروح وارتباطها بالملأ الأعلى ، وهنا يتسع مجال التأثر بالتفسيرات الفلسفية الاسلامية لمثل هذه الأفكار .

على أنا لانقف فى هذا عند حد الاتصال العام الذى ذكرناه ، ولا نكتفى بالاستنباط النظرى لهذا التأثر ؛ بل نجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين ، حلقات تكون سلسلة ذلك الاتصال ، وتكشف عن خطوات الانتقال .

نراهم يقولون فى صراحة ، أن نواة هذه الفكرة الاصلاحية ، إنما توجد فى تصوف إيكهارت الألمانى (٢) ، حين يطبق على اللاهوت (٣) ؛

= البابا ، وتسفيه فكرة الوساطة بعامة — مما بينا فى هذه الفقرة طريق وصوله عملا وفلسفة إلى البيئات المسيحية من المصادر الاسلامية . وكون هذه الفكر مبادئ إسلامية أصيلة ، لايحتاج الى استدلال ولا استشهاد .

(١) مور : المصدر السابق ج ٢ . ص ٣٤٦ .

(٢) إيكهارت هذا هو الذى ذكرنا فى الفصل الثانى : فقرة ٧ ؛ تأثره بابن سينا وسنذكر هنا ، تأثره بالغزالى بشهادة كتاب الأوربيين أنفسهم فى تاريخ الأديان وتاريخ الفلسفة . وهو : المعلم إيكهارت ، الذى ولد حوالى سنة ١٢٦٠ م ، فى ستراسبورج ، وله تلمذة لألبرت الكبير ، كما درس وعلم فى باريس ، واشتهر تبشيره فى أنحاء ألمانيا ، وتعرف مدرستة الفلسفية باسم « المدرسة الصوفية الألمانية » . وهو أحد رهبان الرهبنة الدومينيكانية .

(٣) فيور [illegible] تاريخ [illegible] ص ٢١٣ .

إذ هو يقـول : إن الروح الأنسانيـة نفحة من الأزلى ، وشرارة إلهيـة ، فلا ينبغى أن يقوم شىء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصال السريع بينهما مباشرة . (١)

وإيكهارت فى هذا القول : بأن الروح الانسانية قبس إلهى .. . الخ ، يتصل بعلم النفس الدينى للغزالى (٢) ، المتصوف الأسلامى الـكبير ، الذى بينا اتصال الغرب به اتصالا مبكرا ، ووصفنا شهرته عند الأوربيين ، ووجود آرائه فى كتب تعد أصولا فى النصرانية ، بل حصناً لها . (٣)

* * *

(١) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٩

(٢) ج . مور : تاريخ الأديان . ترجمة إيطالية ج ٢ ص ٣٠٦ .
ورأى الغزالى فى هذا مما بينه فى أكثر من موضع من كتبه المتعددة ؛ وألى القارئ طرفا مما ورد فى كتابه « معارج القـدس ؛ فى مدارج معرفة النفس » طبع القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ — إذ يقول فى ص ١٠٣ منه ما نصه :
« وألا فـكل قلب هـو بالفطرة صالح لمعـرفة الحقائق ، وأن كان بينها « تفاوت كثير ؛ لأنه أمر ربانى شريف كما ذكرناه ، فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف ؛ وأليه الأشارة بقوله تعالى « أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان » أشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرضين والجبال صار بها مطيقا لحمل أمانة الله تعالى ؛ وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد ؛ «وقلب كل آدمى مستعد للامانة ومطيق لهـا فى الأصل .. » وقد قال فى ص ١٦ من هذا الـكتاب ؛
« ونحن حيث أطلقنا فى هذا الـكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل » « فنريد به النفس الأنسانية التى هى محل المعقولات » . وعلى هذا جرى حديثه هنا عن القلب .

(٣) تقرأ فى كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، من الترجمة العربية مانصه : « ولمباحث هذا المؤلف — الغزالى — ونتائجه أشباه كثر =

على أنى من جانب آخر ، ألمح صلة بين هذه الفكرة فى كفاية تصحيح العقيدة وبين فكرة أخرى ، هى مسألة « الأيمان والعمل » ، وضرورة تقدم الأيمان ، حتى يوجد العمل الصحيح ... الخ ؛ لكنى لا أعنى هنا ببيان مناشىء الفكرة كلها ، بل حسبنا أن نكشف جانبا واضحا من صلتها بفكرة إسلامية ، اتضح انتقالها من الشرق ألى الغرب ؛ كما تبين طريق ذلك الانتقال ، ولعل متابعة البحث تهدينى - إن شاء الله - ألى استيضاح طريق التأثر بفكرة الإيمان والعمل .

* * *

٧ — الفكرة الثالثة من الفكر الأصلاحية :

أن كلمة الله هى الضابط الوحيد : فالسلطة إنما هى للكتاب المقدس وحده ، وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع ، والآباء ، والتقاليد (١)

═ فى كتاب « الخلاصة الفلسفية » الذى ألفه القديس توما ؛ وهذه حقيقة يصعب أن تجد لها أكثر من تفسير واحد » ؛ ثم تقرأ فى ص ٣٢٠ منه : وإن فى وجود مذاهب إسلامية الأصل فى كتاب الخلاصة الفلسفية للأكوينى — وهو حصن المسيحية الغربية لدحضا كافيا لاتهام العرب بالجدب ، ورميهم بالفقر إلى الابتكار » ؛ وفى ص ٣١٩ قبل ذلك يقول عن العرب ما نصه :

« فقد كان لهم الفضل فى استبقاء نور العلم وضاء ؛ ومهما قيل فى ضآلة حظهم فى تقدم الفكر الفلسفى البحت ، فإن خدمتهم للإلهيات كانت على أعظم جانب من الأهمية » وأنت حين تقرأ هذه النصوص تجد قولنا بأخذ أفكار إصلاحية عن مصادر إسلامية ، على يد رجال إسلاميين ، ليس بدعا من القول ولا افتياتا ، بل هو حقيقة ، تؤيدها النظرة الأوربية العلمية ؛ وإن كنت لم أجد من ارتقى بها ، حتى انتهى إلى القول صراحة بهذه الصلة بين الأسلام وإصلاح المسيحية ، فى الأفكار الدينية بخاصة .

(١) ج . مور : المصدر السابق ج ٢ — ص ٣٥٥ .
والدرة النفسية فى شرح حال الكنيسة ص ٣٥٢ .

ونلحظ أن هـذه الفكرة فى الرجوع إلى المصادر الأولى ، والأصـول المباشرة للدين ، هى فـكرة شديدة الملاءمة لروح التجـديد الدينى ، وأليق ما تكون ، بمحاولة أصلاح ما أصله الوحى والتوقيف ؛ وفيها مظهر للمحافظة يضفى على المجددين نوعا من الثقة ، ويبعد الريبة ؛ إذ يظهر عملهم فى صـورة إبعاد الشوائب ، وتنحية الزوائد التى دخلت على الأصل ؛ ولهذا نجد فى تاريخ الاصلاح الدينى ـ مسيحيا أو إسلاميا أو غير ذلك ـ أن هذا الاتجاه مما يجتمع المصلحون والمجددون على السير فيه .

كما نجد فى فرق الأديان الثلاثة — اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام — من يلتزم القول بهـذا ويناضل عنه (١) . فهى خطوة فى التفكير مكررة ، ومظهر من التجديد مشترك .

على أن هذا لا يكفى فى تعليل ظهور الفكرة فى بيئة بعينها ، أو دين بعينه فى زمن بعينه ؛ بل لا نزال نحتاج إلى معرفة عوامل التوجيه إليها ، وأسباب ظهورها المباشرة .

وهـذه الفكرة فى التعويل على الإنجيل ونبذ ما عداه ، فكرة قديمة ، قال بها الفالديون فى القرن الثانى عشر ، وقد قدمنا — فصل ٣ ، فقرة ٤ — ما لبيئة هـذه الفرقة من صلة عملية : وصلة عقلية بالإسـلام ؛ مع مجاورتها القريبة لأسبانيا الإسلامية ، إذ ظهرت فى جنوبى فرنسا كما سبق القول .

***

على أنا نرى من حق التاريخ ، أن نشير فى بيان مسارب هـذه الفكرة إلى المسيحيين الغربيين لما مهدنا ببيانه — فصل ٢ : فقرة ١٠ — من أمر الحركة الظاهرية فى الأندلس ، وتمثيل ابن حزم لها هناك ، وعمله على أخـذ العقائد من الكتاب وصحيح السنة فقط . كما نشير مع ذلك ألى حركة تشريعية تحررية ، قاومت التقليد ، واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الإسلامية

---

(١) من هذا فى اليهودية القراءون ، وفى المسيحية الفالديون ، والبروتستانت وفى الإسلام فرق متعددة فى عصور مختلفة وبلاد مختلفة .

اعتمادا لا نكاد نجد له نظيرا فى تاريخ التشريع الإسلامى ؛ تلك هى الحركة التى قامت بعد ابن حزم ، فى عهد المنصور الموحدى ، الذى كان شديد الأعجاب به (١) . واتخذت شكلا رسميا ، فى عهد المنصور أبى يوسف يعقوب ابن أبى يعقوب ، الذى حكم المغرب والأندلس ما بين سنتى ٥٥٤ هـ - ١١٥٩ م ، ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م ، فقد أصدر أمرا برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب ، والحديث والإجماع ، والقياس (٢) .

وتشرح لنا فكرة المنصور فى الرجوع إلى الأصل الأول ، محاورة بينه وبين الفقيه المالكى ، الشيخ أبى بكر بن الجد ، الأشبيلى زعيم وقته « ٤٩٦ هـ — ٥٨٦ هـ » ؛ يقول فى روايتها : لما دخلت على أمير المؤمنين ، أبى يعقوب ، أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه ، كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ؛ فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ . . فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ؛ فقال لى وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار الى المصحف ؛ أو هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ؛ أو السيف (٣)

---

(١) ينقلون أنه وقف على قبره وقال : كل العلماء عيال على ابن حزم . وعلاقة ابن حزم وحريته ، بتلك الحركة الموحدية فى مقاومة التقليد تبدو ظاهرة واضحة .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٢ . ط . بولاق .

(٣) أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : ص ١٨٥ ط مصر سنة ١٣٢٤ هـ

وقد حكم القوة فعلا ، إذ تقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، على نحـو ماسبقت الأشارة إليه ، وتوعـد على ذلك بالعقوبة الشديدة (١) .

والفـكرة فيما يروى (٢) قد شغلت أباه من قبله : أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وشغلت جده عبد المؤمن بن على ، ولـكن ظهر فى أيامه ما خفى فى أيام أبيه وجده ، وأظهر هو من الجد فيها ما لم يظهراه .

ويقال أن مقصدهم فى الجملة كان محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث (٣) .

والبحث فى منشأ هذه الفـكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقة فى تاريخ التشريع الاسلامى عامة ، وتاريخ الحياة العقلية فى الأندلس بخاصة ؛ وإنما نكتفى هنـا بالأشارة إلى موضع الشاهـد على ما قصدنا إليه من قوة فـكرة الرجوع إلى الأصل فى البيئة الأسلامية ؛ خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، واتخاذها شكلا رسميا بتدخل الحـكومة .

وإنك لترى حتى فى المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة ، تشابها بين الغرب الأسـلامى ، والغرب المسيحى ، يلفت النظر ويثير الانتباه ؛ فأبو يوسف المنصور يأمر بأحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، والقرآن ؛ فينفذ ذلك ، وتحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبى زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الـكتب ، ونحا نحوها (٤) . ويحـدث المراكشى المؤرخ ، الذى كان شاهد عيان لهذه

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٤

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ س ١ ، ١٠

(٣) « « ص ١٨٤ ، ١٨٥

(٤) « « ص ١٨٤

الحركة ، أنه شهد وهو بفاس أحمال الكتب يؤتى بها فتوضع ، ويطلق فيها النار .

وهذه النار قد التهمت فى الغرب كثيرا من الآراء والمفكرين كذلك ، سواء على يد الرجال المقاومين للاصلاح ، أو على يد الداعين إليه كما أشرنا إلى بعض ذلك ، فى تعليقات من هذا البحث .

***

والفكرة الأسلامية فى الرجوع إلى الأصل الأول قد راجت ، حتى وصلت آثارها إلى المشرق ؛ وقال ابن خلكان (١) بعد ما روى الخبر السابق عنها ما نصه : —

« ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا بالبلاد ، وهم على ذلك الطريق ، مثل أبى الخطاب بن دحية ، وأخيه أبى عمرو ، ومحيى الدين العربى ، نزيل دمشق وغيرهم » .

وأثر البيئة الأندلسية فى التفكير الدينى المسيحى وغيره مما تكرر القول فيه ، وسبقت الإشارة ألى اطلاع مثل بطرس الفينرابلى على النظريات الدينية والأسلامية فيها ، وإلى إنشاء مدارس التبشير فى أسبانيا الأسلامية نفسها ، وألى إنشاء الجامعات العلمية المسيحية فيها على يد رجال من علماء المسلمين أنفسهم (٢) .

فالتأثر بهذه الفكرة الرسمية الرائجة ليس فيه شىء من البعد ، وهى فكرة واضحة الصلة والارتباط بالفكرة الأصلاحية ، حين ترى الأخذ بالأنجيل ، والوقوف عنده فقط ، واطراح ما وراء ذلك من آراء .

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٤٣٢ ط بولاق .

(٢) اقرأ قول : ا . جيوم ، فى تراث الأسلام ج ١ ص ٢٣٢ من الترجمة العربية ، « وكانت أول جامعة عربية فى أوربا مدينة بوجودها للعلوم الأسلامية ، ذلك أن ألفونس الحكيم (١٢٥٢ – ١٢٨١) قد ساعد رجلا ، اسمه ابو بكر الرقوطى ؛ وكان أحد أعلام العلم فى عصره ، فبنى له مدرسة ، قام فيها بتدريس العلوم فى شتى صورها للمسيحيين ، واليهود ، والمسلمين » . ولعلنا نستطيع أن نعرف عن الرقوطى هذا أوضح وأكثر مما يقولون عنه فى مثل هذه الفقرة القصيرة .

***

٨ — ويتصل بهذه الفكرة فى الاعتماد على الكتاب المقدس ، فكرة الأصلاح المسيحى فى تفسير الكتاب ، ومن له حق التفسير . وقضية التفسير هى هنا صلب المسألة (١) .

ورأى الاصلاح فيها أن لكل مسيحى الحق فى التفسير (Tutti cristisni hanno lo stesso diritto d'interpretarle – la parola di Dio)

ولعل مسألة التفسير أو التأويل هذه ، ليست قديمة قدم غيرها من موضوعات الأصلاح ، التى كانت سبب اصطدام مع الكنيسة ؛ فلم أرها فى مسائل الفالديين الذين بكروا بالدعوة إلى الاصلاح ، بل نرى الصيغة العملية أغلب فى المسائل المبكرة . أما هذا التفسير فخطوة متأخرة ، تلت عمل الفلسفة المدرسية — المتصلة والمتأثرة بالبيئة الأسلامية — مع الدين حين تلاقيا ، فأثيرت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأخذت حيزها الواسع فى تلك العصور الوسطى .

وإذا ما تحدثنا عن التوفيق بين الدين والفلسفة ، وما تلاه من تفسير النصوص المقدسة ، وقفنا لنرى الأثر الأسلامى فى هذه المسائل ، فذكرنا مثل جهاد ابن رشد فى هذا التفسير ، وإفراده إياه بالبحث فى كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ؛ مع تعرضه له فى غير ذلك من كتاباته سعيا إلى رفع ما يظهر من مناقضة بين العلم والدين ، حينما تكون ظواهر عبارات الوحى مثيرة لشىء من هذا .

والرغبة فى التوفيق ، والعمل عليه ، قد أخذت دورا من حياة الفلسفة المدرسية كما أشرنا إلى ذلك — فصل ٢ فقرة ٧ و فصل ٣ فقرة ٣ مع هامش ١ — ؛ والعلاقة بين كبار العاملين على هذا التوفيق فى الغرب وبين المصادر الاسلامية ، مما يتبين كذلك جليا فيما سبق ، وتجد منه على سبيل المثال ما يذكره كتاب الغربيين عن العلاقة بين القديس توما وغيره من مفكرى

---

(١) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ .

الغرب ، وبين ابن رشد ، وغيره من مفكرى الأسلام ، واستفادة هؤلاء من تلك المنابع الأسلامية (١) .

ولسنا بحيث نقصد هنا إلى تأريخ حركة التوفيق فى الغرب ، وإنما نريد أن نقول : إن التفسيرات الرافعة للتناقض الظاهر ، كان يستطيعها أمثال ابن رشد بأنفسهم دون صعوبة كبيرة ؛ ولم يكونوا يجدون من ينكر عليهم هذا الحق فى التفسير — وإن خولفوا أو أنكرت عليهم آراء بعينها فى هذا التفسير — على حين كانت البيئة المسيحية التى اقتفت أثر المسلمين فى هذا ، تجد الحائل القوى دون المضى فى سبيلها ، لأن الكنيسة وحدها ، هى التى كانت تتولى الفصل فى تفسير نصوص الإنجيل (٢) .

على أن هذا الحق فى التفسير كما أشرنا قريبا ، يتصل بفكرة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده وطرح ما عداه ؛ ثم أنه قدر مكمل لفكرة رفض السلطة الكنسية ، ورفض وساطتها فى الغفران ، أذ لا جدوى فى ذلك كله حين يبقى حق تفسير الكتاب المقدس للكنيسة وحدها ، تستخرج من تفسيراتها الخاصة للكتاب ما تستبقى به هذه السلطات أو أكثر منها .

وليس من القليل الأثر فى هذا ما عرفه الغربيون — المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الإسلام — من نظام التفسير عند عامة المسلمين لكتابهم المقدس ، وتحكيم الأصول الأدبية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة يتلقى منها التفسير .

---

(١) اقرأ فى هذا فوق ما تكرر ذكره من مصادر تاريخ الفلسفة والأديان ما ورد فى الجزء الأول من تراث الاسلام — ترجمة عربية — صفحات ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٧ وغيرها) .

« وفى خلال هذا يقرر الكاتب أن ابن رشد بهذا الجهد فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، قد ترك للعلم المسيحى أكثر من التعليق على أرسطو .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٣

***

٩ — المسألة الخامسة مما تأثر فيه الإصلاح بالأسلام ، مسألة سر الشكر أو « الافخارستيا » eucarestia (١) وإنكار الاستحالة الحقيقية ، مع الاعتقاد بوجود المسيح فى القربان إلى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن تكون استحالة حقة .

وهذه المسألة قديمة كذلك . قد نظر فيها بطرس اللومباردى Pietro Lompardi) منذ القرن الثانى عشر ، وقال بها فعلا « أوكام » و «أيلى» . وعن هؤلاء أخذها ، لوثر ، الذى وصفنا صلته بهم — فصل ٣ فقرة ٥ — فإذا

---

(١) هى مناولة كنسية تمثل العشاء الأخير، الذى تناوله المسيح مع تلامذته ؛ وتختار القرابين فيها من أفضل المقدم من خبز وخمر ، يعتبر الخبز جسد المسيح ، ويعتبر الخمر دمه ؛ ولها رسوم اختلفت باختلاف أدوار حياة المسيحية ؛

وكان من أسباب انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وحرمان كل واحدة منهما لصاحبتها ، استعمال الفطير فى هذه المناولة بدل الخبز .

ويلاحظ أن الخلاف حول هذه المناولة ثار فى الغرب منذ انتقلت إليه عدوى البحث العقلى الدينى من الشرق ؛ فمنذ القرن العاشر بحثوا فى كيفية وجود جسد المسيح ودمه ؛ وأنكرت استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ وقيل أنهما يبقيان خبزا وخمرا بسيطين وماهما إلا رسم لجسد المسيح ودمه فقط.

بل ثار الخلاف فى القرن الثانى عشر حول أن جسد المسيح ودمه المتناولين: هل هما قابلان للفساد كما كان جسد المسيح قبل الصلب ؛ أو هما غير قابلين للفساد كما كان جسده بعد الصلب ، وهو خلاف يبدو غريبا .

ونما الخلاف بشأن هذه المناولة منذ ظهرت طلائع الاصلاح المسيحى فقويت فكرة أنكار استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ حتى كان رأى لوثر هو ذلك التوفيق الفلسفى الذى شرحناه ؛ وأن المسيح يوجد إلى جانبهما دون أن يتحولا الى جسده ودمه .

وقدر أن الفكرة فلسفية الأصل ، نشات فى تلك البيئة المدرسية ، التى عانت التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ وقال بها — كما رأيت — أولئك الفرنشيسكانيون ، الذين عرفوا بنصرة الفلسفة الإسلامية ومن كل هذا يظهر قرب هذه البيئة إلى التفكير الأسلامى وتأثرها .

***

فلنذكر فى هذا المقام أن الفلسفة والدين فى الأسلام أو الفلسفتين ، العامة والكلامية ، قد تعارضت نظرتاهما فى مسألة الأسباب والمسببات ، فكان طريق التوفيق بينهما فى ذلك ، طريقا ينتهى إلى مثل هذا التوفيق ، بين النظرة المسيحية الدينية ، والفلسفة المسيحية المتدينة ، فى مسألة سر الشكر التى نتحدث عنها .

فى هذه المسألة المشابهة للمسألة المسيحية ، أى مسألة الأسباب والمسببات بين الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، قال المتفلسفة بالسببية المحضة ، وأنكرها المتدينون ، ولم يروا لها تأثيرا ، فرأى المتكلمون أن ليست الأسباب إلا أسبابا عادية ، ووجود المسببات عندها أنما هو بخلق الله لابها (١) .

---

(١) المسألة معروفة فى البيئات الكلامية ؛ لكنى مع ذلك أضع بين يدى القارئ طرفا مما ورد عنها فى كتاب التهافت الذى كان معروفا رائجا عند الأوربيين فى القرون الوسطى ؛ فقد عقد الأمام الغزالى فصلا فيه ، عنوانه « مسألة الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ... » وفيه يقول : « المقام الأول : أن يدعى الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له ؛ وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق بخلق السواد فى القطن ، والتفرق فى أجزائه ، وجعله حراقا — كغراب ما يقع فيه النار عند القدح — ورمادا هو الله تعالى ، أما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ؛ فأما النار فهى جماد لا فعل لها ؛ فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم =

وقد كانت هـذه المسألة مثار المشادة القوية بين ابن رشد والمتـكلمين فى رده على تهافت الغزالى ؛ وكلاهما مثل جانبا من جانبى التفكير ، ونحن نعرف أن الغزالى قد كانت آثاره بين يدى الغربيين فى سنين مبكرة من القرن الثانى عشر الميلادى ؛ ونعرف أن تهافته قد ترجم إلى الـلاتينية ، واقتبست منـه أفـكار بذاتهـا فى مؤلفات مسيحية ، على ما سبق بيانه ؛ كما نعرف أن الفلسفة الرشدية قد سادت وتحكمت فى أوربا عهودا طويلة ؛ فالجانبان من الرأى وحججهما . قد كانا فى أيدى فلاسفة الغربيين بلا مراء ، دهرا طويلا .

وإذا ما قدرنا كل هذا فلا بعد فى أن نقول : إن هذا الحل الفلسفى بعينه فى مسألة الاستحالة ، قدجاء محاكاة للحل فى مسألة الأسباب . وهى فلسفية أيضا وأن نجد القرب الشديد بين هذه الفـكرة الفلسفية فى مسألة الاستحالة الدينية للخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، والفكرة الـكلامية فى مسألة الأسباب الفلسفية ؛ نعم نجد قربا يبرر الاطمئنان إلى استنتاج أن الفـكرة فى وجود المسيح عنـد مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا إلى جسده ودمه ؛ قد تأثرت بفـكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابهـا ، لا أنها توجد بها نفسها . الفـكرة هى الفـكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعان همـا العقـيدة والفلسفة . والتوفيق الأسـلامى دينى يريد إرضاء الفلسفة ، والتوفيق المسيحى فلسفى يريد أن يفهم الدين ، أو يرضيه ؛ والتوفيق الغربى متأخر عن التوفيق الشرقى بوقت طويل ؛ وقد عرف اللاحق السابق .

* * *

= دليلٌ إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به . إلى أن يقول بعد ذلك « فقد تبين أن الموجود عند الشىء لا يدل على أنه موجود به » اهـ . من ص ٦٥ — ٦٦ : تهافت الفلاسفة ؛ طبع القاهرة سنة ١٣٢١

وقد ناقش ابن رشد هذا الفصل فى ص ١٢٢ وما بعدها من تهافت التهافت — طبع القاهرة مع تهافت الغزالى —

١٠ — المسألة السادسة من نواحى التأثر : مسألة قديمة ، ظهر بها مذهب مسيحى قديم ، منذ عصور مبكرة ، وأقرها الاصلاح وسار عليها ؛ تلك هى مسألة الصور ؛ إذ قال المذهب الايكونوكلاستى (Iconoclasti) ، فى القرن الثامن الميلادى ، بإبطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل الى تدنيسها وتحطيمها ؛ ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على إبطال عبادة الصور

وهذا المذهب قديم الصلة بالأسلام فى الشرق — ولو أن فكرته نفسها أقدم ظهورا من الأسلام — ؛ والعلاقة بين ليون الثالث الأيساورى مكسر الأصنام ، الذى أقلق سلام الكنيسة ، وأظهر الفكرة فى عنف ؛ وبين الأسلام والمسلمين علاقة وثيقة (١) . وفى تعليل عمله ضد الصور ، يقول كاتب كنسى — هو الخورى عيسى أسعد صاحب كتاب الطرفة النقية — : أن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية ، إذ رغب فى التقرب إلى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العهد المسلمون فى ديارهم .

ولا يعنينا كثيرا أن نعمل لترجيح أحد الاحتمالين فى هذا المكان ، فكلاهما كاف لإيضاح أن أقوى حركة عرفها تاريخ المسيحية ضد عبادة الصور كان لها بالأسلام مثل ذلك الاتصال فى نشأة القائم بها — ليون الثالث الايساورى (Leone III l'isaurier) أمبراطور القسطنطينية — وفى تفكيره . والحركة الأسلامية التى سمعت خبرها فى تحطيم التماثيل ، هى التى قام بها الخليفة

---

(١) يتحدث ابن الأثير فى الكامل — ج ٥ ص ١٠ وما بعدها ط القاهرة — بأن ليون هذا جاسوس للعرب ، وأنه جاء سليمان بن عبد الملك فضمن له فتح الروم ؛ فكانت غزوة مسلمة للقسطنطينية التى يفصل ابن الأثير خبرها فى هذا الموضع ويبين كيف انتهى الأمر بتمليك الروم ليون هذا عليهم أذا صرف المسلمين ، وأنه احتال لذلك ، وبعد هذا ببضع سنوات قام بحركته فى تحطيم التماثيل وإبطال عبادتها ؛ تلك الحركة التى تكاد تكون أقوى ما عرف فى تاريخ مقاومة التماثيل بالكنيسة .

الأموى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م ؛ — وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦ م — ؛ أذ كتب يزيد إلى حنظلة بن صفوان واثى مصر ، أن يكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها فى أيامه (١) .

ويذكر صاحب الطرفة النقية الآنف ذكره فى سبب قيام يزيد بن عبد الملك بهذه الحركة ، أن حاخاما يهوديا أغراه باصدار أمر يحظر فيه التصوير لكى لا يكون للمسيحيين ميزة على كنيس اليهود ، ففعل ؛ لكن أمر يزيد على ما يرويه صاحب النجوم الزاهرة لا ذكر فيه للتصوير أو الصور ، والخليفة يزيد فى غنى عن أن يحرض على هذا تحريضا خاصا ، سواء بشأن الصور أو التماثيل ، والأمر فى الأخيرة أشد ؛ نعم لا بد أن يكون هناك سبب مباشر ، دفع إلى إصدار هذا الأمر الخاص بكسر التماثيل ؛ ولكن ليس يجب أن يكون المحرض من غير البيئة الأسلامية ، النقمة على ذلك دائما .

وعلى كل فالمؤرخ لا يغفل فى سهولة صلة ما بين عمل يزيد ، وعمل ليون فى وقت متقارب ، لا يزيد الفرق فيه عن بضع سنوات ، بعد ما عرفت صلة ليون القوية بالمسلمين ، ولحظها كاتب كنسى .

***

تلك مسائل مما تجلت فيه الصلة بين الأسلام عقيدة وعملا وتفكيرا ، وبين البيئات الإصلاحية المسيحية فى أوربا ؛ وأكثرها مما تبين فيه طريق الاتصال بعبارات الكتاب الغربيين أنفسهم .

وفى هذا ما يكفى للتمهيد للفكرة ، ولفت نظر علماء تاريخ الأديان إلى استكمالها ، بالدرس والتنقيب فى حياة الدينين . وما يصل طماعيتى فى متابعة هذه الدراسة واستيفائها .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ طبع دار الكتب الملكية .

وإذا كان الأستاذ الفريد جيوم يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام في الفلسفة والإلهيات ما نصه . — « وسوف نرى عند ما تخرج ألى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوربية ، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأنا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى الآن » .

فإني لأقول : سوف نرى عند ما تتجه الرغبة العلمية إلى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة وإخلاص ، أن أثر الأسلام في حياة أوربا الدينية ، لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية ، والعلمية ، والفنية .

خاتمة

كان لهذا الموضوع عند الغربيين سواء في مصر او أوربا وقع لافت ، حتى لقد تقدم إلينا في حفلة افتتاح المؤتمر ، بمدينة بروكسل أعضاء الوفد الأيطالي ، يسألون عن الوفد المصري ، ومن سيتكلم في موضوع « الأسلام والاصلاح البروتستانتي » مظهرين اهتمامهم بالموضوع .

ولقد تلطف الاستاذ ﻫ . ماسي (H . Massi) الأستاذ بجامعة باريس ، والذي اختير لرياسة القسم الإسلامي بالمؤتمر ، فسأل بعد إلقاء خلاصة الموضوع ، عن طبعه ، ومتى وأين يكون ؟ وطلب أن أرسل إليه نسخة عربية عند ما يتم ذلك . إذ هو لا يعرف الأيطالية التي كتب بها البحث ، على ما أظن .

ولعل في هذا الاهتمام بالموضوع ما يرجع إلى شيء من الدهش لجدته ، أو ما يرجع ألى تشوف العصبية الدينية ، لما يمكن أن يقال فيه .

فأما الجدة فنعم . وأما العصبية فأحسب أن الله قد وقى من خطرها على الحق . ويهمني أن أؤكد في الختام ما قلته في البدء من : أن البحث العلمي النزيه ، هو الطلبة الأولى والأخيرة فيما كتبت ؛ وأرجو أن يشعر القارئ معي بهذا ؛ وأن أكون قد وفقت إلى التزام ذلك دائما .

***

وأرى من الخير ، أن أشير إلى حادث يسير الخطر ، كبير الأثر ، يمس هذا الموضوع فى مصر ؛ ويتصل بفهمنا للأمانة العلمية ؛ وتقديرنا لها . ذلك أن الحديث عن موضوع هذا البحث ، واختياره ليقدم إلى المؤتمر ، كان قد تناثر بمصر منذ وجهت الدعوة إليها ، حوالى نهاية ١٣٥٣ هـ - ابريل سنة ١٩٣٥ م وذكرت إذ ذاك أن هذا الموضوع ، يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ؛ أيام كنت فى روما ، ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الأصلاح الدينى ؛ وقيدت ذلك فى مذكرات علمية محفوظة .

فى تلك الأثناء - أواخر سنة ١٣٥٣ هـ - كانت مطبعة المنار ، تخرج طبعة سابعة من رسالة التوحيد ، للاستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ؛ وقد اعتاد الناشر ، وضع عناوين فرعية من عنده فى رءوس الصفحات ، تبين محتويات الفصول ، كما صرح بذلك فى صفحة ١٦٦ من الطبعة السابعة نفسها ؛ وكما رأى من حقه أن يعلق على الرسالة فى هامش الصفحات ، تعليقات من عنده .

ففى الطبعات المتقدمة على هذه الطبعة ، كان يضع بين عناوينه الفرعية للفصل الخاص بانتشار الأسلام فى آخر الرسالة ، عنوانين : هما « الحروب الصليبية ، واستفادة أوربا من المسلمين » و « استفادة أوربا من الأسلام » . لكنه فى الطبعة السابعة التى أرخها بعام ١٣٥٣ هـ ، استغنى عن هذين العنوانين ، بعنوان جديد نصه : اقتباس الأصلاح الدينى فى أوربة من الأسلام - ص ١٩٤ ط سابعة - وورد فى الرسالة تحت هذا العنوان ما عبارته « ولم يكن بعد ذلك إلا قليلا من الزمن ، حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته ، وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الأسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الأصلاح فى العقائد (١) إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام ،

---

(١) هنا علق الناشر فى الهامش بما نصه « هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الانكليز والأميركان » ؛ وهذا التعليق أيضا جديد فى هذه الطبعة السابعة لا يوجد فى الطبعات الأخرى .

إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ماهم عليه إنما هـو دينه يختلف عنه اسما ، ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لا غير » . اهـ

وما فى هـذه الفقرة من أن الأصلاح لا يبعد عن الأسـلام إلا قليلا ؛ أو أن العقائد صارت به تتفق مع عقيدة الأسلام .. الخ ؛ لا ذكر فيه لشىء من الاقتباس أو التأثر ؛ ولا يكفى لوضع هذا العنوان الصريح ، عن اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربا من الأسلام ؛ ولو كان مثل هذا المعنى الذى فى العنوان ، قد اتجه إليه الأسـتاذ الامام ، وهو يكتب رسالة التوحيد ، لما كفته فيه ، تلك العبارات العامة المبهمة ! !

ولقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس فى الشرق أو فى الغرب لأشعر بنصرته للفكر ، ثم أمضى فى بيانها وتأييدها ؛ فلم تصل يدى إلى شىء من ذلك . ولو أن الأستاذ الامام ، قد أشار إلى هذا الاقتباس لـكان ظهيرا لى آنس به ؛ لأتقدم إلى بيان الفـكرة ، وتأييـدها ، على نحو ما صنعت ، فى كشف مسالك الاتصال والانتقال بين الدينين ؛ وما كان لذلك من أثر فى مبادئ الأصلاح المسيحى ، وآراء أصحابه . . . لـكن كلام الاستاذ الأمام لا يفيد شيئا من ذلك فى قرب .

***

فناشر المنار قد أضاف إلى رسالة التوحيد ، عنوانا جديدا — ص ١٩٤ ط سابعه — ليس له ظـل من الوجود فى الطبعات السابقة ؛ كما زاد هامشا جديدا فى الصفحة نفسها ، ليس له وجود فى الطبعات السابقة . ولا رعاية فى هـذا كله لشىء من الأمانة العلمية ؛ وفيه ما فيه ، من التعمية على التاريخ ، ولا مبرر لذلك كله ولا مقتضى له . وكان خيرا من ذلك لو أراد فائدة قرائه ، أن يشير فى الهامش ، إلى ظهور هذه الفكرة ، وتكميلها البحث ؛ وأثباتها استفادة أوربا من الأسلام ، فى آراء الأصلاح نفسها .

ولو مضيت فى الاستنتاج الذى تبرره الشواهد السابقة ، لا تهمت تاريخ هذه الطبعة للرسالة بعام ١٣٥٣ ؛ وأنه لون من التعمية ايضا .

لكنى أدع هذا كله ، مكتفيا بأن أتمنى للباحث ، والناشر ، والقارىء في الشرق أن يوقى مثل هذا التساهل ، وعدم التقدير للأمانة العلمية ، ولا سيما أبناء أولئك السالفين ، الذين عرفنا من دقتهم في الرواية ما عرفنا ، ورأيناهم يتحرجون فى ذلك تحرجا شديدا ، ويشيرون إلى أيسر تغيير فى روايتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

***

على هذه الأمانة لقيت قارئى منذ بدأت البحث ؛ وعلى هذه الأمانة أنتهى به إلى ما انتهيت إليه من نتائجه . والسلام على من اتبع الهدى ؟